المجلة التاريخية المصرية ٥٣ (٢٠١٩) ٧ــ٤٠

رمزية معبد الأقصر

محمد محمود قاسم

ملخص

تعتبر المعابد المصرية القديمة مصدرًا تاريخيًا هامًا لما تحويه سجلاتها من تصوير ملامح الحياة الرسمية والدينية للمصريين الأقدمين. وعلى أية حال، فهناك دراسات سابقة حاولت تقديم بعض أسباب بناء مثل تلك المعابد الضخمة، مثل أن تكون المعابد بمثابة بيتًا لتجلي الإله، حيث يستقبل عابديه، و يتلقى منهم القرابين، ويحتفل معهم بأعياده. تحاول تلك الورقة البحثية أن تحلل كل المعلومات المتاحة بالاضافة إلى شواهد جديرة بالملاحظة لكي تقترح السبب الحقيقي لإنشاء أحد المعابد الشهيرة حتى الآن، ألا و هو المعروف بمسمى «معبد الأقصر».

تقترح الورقة البحثية أن ذلك المعبد استخدم ليحدد الموقع المقدس الفعلي لخلق آمون، ملك الآلهة، الذي ظهر في هيئة مين في مناظر المعبد كإله للخلق، الولادة والخصوبة. وعليه كان آمون يزور ذلك الموقع المقدس، حيث معبد الأقصر، ليجدد ذكرى ولادته الإلهية له ولأسلافه الآلهة وفقًا لمذهب مدينة طيبة. وكذلك فإن زيارة آمون المقدسة هدفت إلى تجديد قوى «الكا» المقدسة التي تمثل الجانب الخالد من الإله أو الملك، والذين احتفلوا بتلك المناسبة الدينية من خلال ما يسمى Hb n ipt «عيد الأوبت». لعل ذلك ما دعى الملك أمنحوتب الثالث بإعلان ولادته المقدسة في نفس ذات موقع خلق أبيه آمون، حتى يضفي على ولادته القداسة التي يحتاج إليها في تقوية سلطته.

إلى جانب ذلك توصلت الدراسة إلى أن معبد الأقصر يجسد أسطورة الخلق باسلوب معماري. فلاحظنا أن أرضية المعبد مستوية في الفناء المفتوح للملك رمسيس الثاني، بينما تتصاعد تدريجيًا بدءًا من فناء أمنحوتب الثالث في اتجاه الجنوب. فهناك عدة درجات سلم تربط بين عناصر المعبد المعمارية نتيجة اختلاف مستويات الأرضية. تتشابه الأرضية المستوية للمعبد مع طبيعة أرض مصر السفلى في الشمال، بينما الأرض المرتفعة تتشابه مع أرض مصر العليا في الجنوب. ويأتي دليل ذلك من وجود ممر الأساطين العظيم بممره الضيق الذي يصل بين الأرضيات المستوية والمرتفعة للمعبد مثل نهر النيل الذي يربط بين أرضي مصر السفلى والعليا. الدليل الآخر هو وجود قدس أقداس المعبد قابعًا على قمة تل مرتفع مشيد على طبقات من الأحجار. ذلك التل يجسد التل الأزلي المذكور في أسطورة الخلق.

Abstract

The ancient Egyptian temples consider important historical sources because of their registrations that depict the formal and religious aspects of the ancient Egyptians life. However, there are previous studies tried to give some reasons of building such these huge temples, as they were the houses of the god appearance, where receiving the offerings of the prayers in addition to celebrating his own festivals among them. The paper tries to analyze all available data and the noteworthy evidences to suggest the actual reason to construct one of the famous temples until now, it is known as "Luxor Temple".

The paper suggests that this temple used to define the actual sacred site of Amun creation, king of the gods, who appears in the form of Min in the temple

depictions as god of the creation, birth and fertility. Therefore, Amun had visited that sacred site, where Luxor Temple, to rejuvenate his divine birth together with his ancestors of the gods according to Thebes Myth. Moreover, this divine visit of Amun aimed to rejuvenate the sacred *Ka*-forts that represented the immortal part of the deity or the king who celebrated this religious ceremony through the so-called Hb-n-ipt "Opet-Festival". Accordingly, King Amenhotep III pronounced his divine birth in the same site of the birth of his father Amun, to give his birth the holiness that he need it to forth his authority.

The study tries to prove that Luxor Temple embodied the Creation Myth in architectural style. We note that the floor level of the temple is flat at the open-courtyard of king Ramses II, while it raises gradually from the open-courtyard of king Amenhotep III in the direction to the south. There are many staircases connect between the architectural parts of the temple as a result to deference of the floor levels. The flat floor of the temple looks like the nature of the land of Lower Egypt at the north, while the raised floor is similar to the land of Upper Egypt at the south. The evidence comes from the existence of the Great colonnade with a narrow way that connects between the flat and raised floors of the temple as the River Nile that joins between the two lands of Lower and Upper Egypt. The other evidence is the existence of the holy sanctuary of the temple resting on the top of a raised mound built on many layers of stones. This mound represents the primeval mound that was known in the Creation Myth.

*

* *

مقدمـة

تعتبر المعابد المصرية القديمة من أعرق المعابد القديمة وأهمها، ليس فقط بسبب قدم تاريخ إنشائها، ولكن لما تحويه من سجلات تاريخية وحضارية تتمثل فيما تم نقشه من مناظر تصور ملامح من الحياة الرسمية وكذلك الدينية للمصريين الأقدمين. على سبيل المثال، تلك المناظر التي تصور الملك قائمًا بواجب تقديم القرابين نيابة عن نفسه وعن شعبه شكرًا لمعبوداته التي اختارته ملكًا لمصر، وأسبغت نعمها على شعبها من نيل سائغ شرابه، وأرض متسعة خصبة تربتها، وحدود آمنة تخومها.

وعلى ذلك، فهناك أسباب عامة متنوعة لبناء تلك المعابد الضخمة، منها أن يكون المعبد بمثابة بيتًا لتجلي الإله، فيه يستقبل عابديه، ويتلقى منهم القرابين، ويحتفل معهم بأعياده. هذا، وأسرف ملوك مصر القديمة في تشييد تلك المعابد إلى درجة حدوث تكدس للمعابد في الموقع الواحد مثلما الأمر في طيبة. ومع ذلك فتلك المعابد لم تفصح صراحة عن السبب الحقيقي والخاص بإنشاء كل منها، ولذا تحاول تلك الدراسة أن تتوصل إلى السبب الحقيقي من وراء إنشاء أحد المعابد الهامة والخالدة حتى الآن، ألا وهو المعروف بمسمى «معبد الأقصر».

وترجع الأشغال المعمارية الأقدم في موقع المعبد، وفقًا للشواهد الأثرية، إلى عهد الملك سوبك_حوتب الثاني من عصر الأسرة الثالثة عشرة، والذي سُجل اسمه على قطع حجرية جيرية، لعلها من بقايا منشأة دينية بذلك الموقع، وقد أُعيد استخدامها في فناء أمنحوتب الثالث[1]. وكانت كذلك مقاصير حتشبسوت وتحوتمس الثالث،

---

(١) عُثر على تلكما القطعتين عند مدخل قاعة أعمدة الملك أمنحوتب الثالث الكبرى، انظر:

G. DARESSY, "Le voyage d'inspection de M. Grébaut en 1889", ASAE 26, 1926, p.8.

ويلاحظ العثور على بقايا خرطوش لإسم الملك أمنمحات الأول في أطلال ملحقات معبد الأقصر، ووجدت محفوظة في مخازن المعبد، انظر: =

والتي تم ضمهم ضمن الفناء الأول[1]. بالإضافة إلى توت_عنخ_آمون، والذي قام بنقش جدران ممر الأساطين العظيم بالمعبد بمناظر عيد الأوبت، فضلًا عن ظهور اسمه على قطعة من الحجر الرملي محفوظة حاليًا بمتحف ليفربول[2]. وأكمل الملك حور_محب من أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة تلك النقوش من بعده[3]. فيما كان للملك نخت_نبف من عصر الأسرة الثلاثين بعض الذكر، فقد تم اكتشاف اسمه مسجلًا على بعض تماثيل أبو الهول أمام واجهة المعبد[4]. هذا ويعود الجزء المعماري الأبرز من ذلك المعبد إلى عهد الملكين أمنحوتب الثالث من عصر الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك إلى الملك رمسيس الثاني من عصر الأسرة التاسعة عشرة.

ومع ذلك الحجم الكبير لمعبد الأقصر معماريًا، كانت طبيعة المغزى من الإحتفالات التي ارتبطت بالمعبد مثل عيد الأوبت مقصورًا على كونها شعائر لعبادة آمون كما سيلي بيانه، كل ذلك وسط صمت في التفسير من النصوص المصرية القديمة[5]. وعلى ذلك سنقدم ما تناوله الدارسون من فرضيات علمية حول طبيعة

= L. GABOLDE, "Un assemblage au nom d'Amenemhat Ier dans les magasins du temple de Louxor", in: *Causing his name to live: studies in Egyptian epigraphy and history in memory of William J. Murnane*, (eds) J.P. BRAND, PETER J. and L. COOPER, Leiden - Boston, 2009, p.103.

(١) P. BARGUET, "Luxor", *LÄ* III, 1103.

(٢) W.R. JOHNSON, "A Sandstone relief of Tutankhamun in the Liverpool Museum from the Luxor Temple colonnade hall", in: *Causing his name to live Culture and History of the Ancient Near East. Essays in memory of William J. Murnane*, New York, 2009, pp.125-128.

(٣) يقال أن حور محب قام بازالة إسم توت عنخ آمون من بعض طغراواته المسجلة على نقوش عصره في معبد الأقصر، انظر:

P.J. BRAND, *The Monuments of Seti I. Epigraphical, Historical and Art Historical Analysis*, Leiden –Boston – Köln, 2000, p.90.

(٤) M. ABD EL-RAZIK, "Study on Nectanebo Ist in Luxor Temple and Karnak", *MDAIK* 23, 1968, pp.156-159; BAKRY, HASSAN S.K., "The Sphinx Avenue of the Luxor Temple: Its Literary and Historical Importance", in: *Acts. First International Congress of Egyptology, Cairo, October 2-10, 1976*, (ed.) W.F. Reineke, Berlin, 1979, pp.79-86.

(٥) P. BARGUET, op.cit., 1104; E. Otto, *Ancient Egyptian Art. The Cult of Osiris and Amon*, New York, 1967, p.97.

معبد الأقصر والهدف من تشييده، مع نقدها في ضوء الشواهد الأثرية، بالإضافة إلى محاولة تقديم رؤية جديدة عن تلك الرمزية التي كانت من وراء إنشائه، مع إعطاء تفسير ديني حول تصميمه المعماري المتعلق بتلك الرمزية.

أولًا: الفرضيات السابقة حول رمزية المعبد

جاءت تفسيرات المتخصصين متباينة، كما يأتي بيانه:

الفرضية الأولى

تدور تلك الفرضية حول تأكيد نسب الملك أمنحوتب الثالث للمعبود آمون، إذ أن أحقيته للعرش لم تكن متماشية مع التقاليد الملكية المصرية التي تقضي بأن الملك يجب أن يكون ابنًا شرعيًا لملك وملكة من سلالة ملكية نقية. ولم ينطبق ذلك الأمر على أمنحوتب الثالث، فأمه موت_م_أويا لم تكن مصرية، بل أميرة ميتانية، وحتى زوجته تي لم تكن من سلالة ملكية، بل من عائلة اقليمية ذات نفوذ بالجنوب. ولعل ذلك أضعف من شرعية جلوس ذلك الملك على عرش مصر، مما أثار حوله قلاقل سياسية أدت على حدوث بدايات فوضى أو ثورة ضده؛ لذلك رأيناه يعلن تصديه لها باتخاذه لقبًا نبتيًا وهو smn hpw sgrH tAwy «مثبت القوانين، مهدىء الأرضين»(١)، أو أقترح ترجمته «مقر القوانين (التي) تهدئ الأرضين (مصر)».

ولهذا اضطر أمنحوتب الثالث أن يكتسب شرعيته من الإله الأكبر آمون مباشرة، وذلك عن طريق اثبات بنوته لذلك المعبود ذاته. وقد أعلن ذلك الأمر بتسجيل ولادته المقدسة على جدران الغرفة الشهيرة بغرفة الولادة ضمن معبد ضخم(٢)؛ لكي يرضي الكهنة الكبار في طيبة، وبخاصة كهنة آمون ذوي النفوذ الديني بين المصريين وقتها بما

---

(١) H. GOEDICKE, *Problems concerning Amenophis III*, Baltimore, 1992, pp.10-12; Z.G. Zaki, "The Reign of Amnhotep III. A Period of Internal Unrest", in: *Mélanges offerts à Ola el-Aguizy*, (ed.) F. Haikal, BdÉ 164, 2015, p.149.

(٢) Cf. C. CAMPBELL, *The miraculous birth of king Amon-hotep III and other Egyptian studies*, London, 1912, pp.34-36.

سيُهدى إلى إلههم وإليهم من خيرات القرابين والعطايا، أملًا منه أن يصدقوا ويؤكدوا على قصة ولادته المقدسة من الإله آمون[١].

قد يبدو ذلك التفسير مقبولًا منذ الوهلة الأولى، ولكن يجب ملاحظة النقاط التالية:

أ) أما كان من الأولى لذلك الملك أن يعلن بنوته لذلك المعبود في معبده الرسمي بالعاصمة طيبة، وهو معبد الكرنك الشهير، والذي يجاور معبد الأقصر بثلاثة كيلو مترات فقط.

ب) للملك أمنحوتب الكثير من الإنشاءات داخل معبد آمون بالكرنك، منها الصرح الثالث، وبالتالي كانت تتوافر له مساحة مناسبة على الجدران لتسجيل مشاهد تلك الولادة الإلهية وعلى الملأ، حيث زوار المعبد الرئيس لذلك المعبود.

ج) إذا كان سبب الإنشاء هو تبيان واثبات بنوة الملك أمنحوتب الثالث للمعبود آمون، لكان الأولى لذلك الملك أن يشرع في بناء معبد الأقصر فور توليه العرش، ولكان انتهى من البناء خلال حياته، خاصة وأنه حكم لمدة ٣٩ عامًا[٢]. ومع ذلك نجد أن هذا المعبد لم يكتمل في عهده، مما يشير إلى أن بداية البناء لعلها مع أواخر عهده.

د) إذا تقبلنا افتراض أن سبب الإنشاء هو تسجيل مناظر تلك الولادة المقدسة بشكل عام، فما الداعي والباعث لقيام ملوك لاحقين على عهد الملك أمنحوتب الثالث بإكمال تشييد المعبد الضخم، وأغلبهم لا ينتمون إلى نسبه؟!

وعلى ذلك لا ارتباط بين تولي أمنحوتب الثالث العرش وبين اثبات بنوته المقدسة واعلانها في معبد خاص.

---

(١) سيد توفيق: تاريخ العمارة في مصر القديمة. الأقصر، القاهرة ١٩٩٠، ١٠٩.

(٢) نيقولا جريمال: تاريخ مصر القديمة، ت: ماهر جويجاتي، م: زكية طبوزادة، القاهرة ١٩٩٠، ٢٨٦.

الفرضية الثانية

أن الملك أمنحوتب الثالث إنما بنى ذلك المعبد تقربًا للمعبود آمون ليشفيه من مرض أصابه أو لحمايته من وباء مثل الطاعون (؟) قد أصاب أهل مدينة طيبة؛ بدليل العدد الكبير الذي نحته الملك أمنحوتب الثالث من التماثيل للمعبودة سخمت بمعبد المعبودة موت في الكرنك، والتي لها قوى سحرية شافية(١).

لقد كان من الأحرى إن كان أمنحوتب الثالث مريضًا مرضًا خطيرًا، أن يقيم معبدًا للمعبودة سخمت، إن أراد شفاءًا. أما المعبود آمون كان إلهًا رسميًا قبل أي شيء آخر، وفي ذات الوقت لم يكن ربًا لكل شيء.

الفرضية الثالثة

كان آمون يقوم بزيارة زوجته المعبودة موت مرة كل عام، فيرتحل من معبده الكبير فى الكرنك الى معبد الأقصر؛ لذلك جعلوا من «معبد الكرنك» قصر آمون الرسمى، ومن «معبد الأقصر» منزله الخاص يسكن فيه الى أزاوجه. ويستدلون على ذلك بما يأتي:

١) أن هناك مشابهة بين قيام الملوك بفصل مقابرهم في وادي الملوك عن مقابر زوجاتهم في وادي الملكات، وبين وجود معبد الكرنك للزوج وهو المعبود آمون، ومعبد الأقصر المخصص للقاء الزوجات وهن المعبودات موت وآمونت(٢).

٢) كان قدماء المصريين يصورون حياة أربابهم على نحو ما عرفوا من حياة البشر، فيتخذون لتلك الآلهة أزواجًا، ويجعلون لهم الأولاد، ويبنون لهم القصور في صورة معابد، ومن بينها معبد الكرنك الذي اتخذوه قصرًا رسميًا للمعبود آمون،

---

(١) H. GOEDICKE, *op.cit.*, pp.70-99.

(٢) Cf. Y.M. EID, "A Preliminary Study about the Royal Tomb in the Time of the New Kingdom at Thebes", GM 134, 1993, pp.31-33.

ومعبد الأقصر كقصر خاص به وبأهله، يسكن فيه إلى أزواجه[١].

٣) كان المصريون يحتفلون بلحظة زيارة الإله آمون إلى قصر حريمه في موعد محدد، حتى أنهم ربطوا بين مسمى وقت الزيارة وهو شهر pA-n-ipt (المعروف حاليًا بشهر بابة) والذي يقابل الشهر الثاني من فصل الفيضان (آخت)، وبين إسم هذا القصر أو المعبد المسمى Ipt-rsyt بمعنى «الحريم الجنوبي»[٢]. ففى هذا الشهر يحين موسم الفيضان، فيغرس النهر خصوبته بأرض مصر، ويحل الخصب والنماء فيها، فينعم بهذا الخير العظيم أبناء مصر فى وادى النيل. وهكذا فقد جعل الناس زواج ربهم آمون فى هذا الشهر من أيام السنة بزوجاته، فكأنما كانوا يلتمسون له ولأنفسهم الخير والنماء والبركة فى موعد الخير والبركة، ثم باتوا يحتفلون بذكرى ذلك الزواج المقدس مع بداية موسم كل فيضان لنهر النيل كل عام[٣]. وقد يؤيد ذلك الرأي هو العثور على علامات قياس مستوى ارتفاع الفيضان عند مرسى ميناء ذلك المعبد[٤].

لكن من جانبنا نتساءل، كيف يزور آمون زوجته آمونت وهي لم تُذكر إلا على بوابة المعبد، وحتى زوجته موت فهي تصطحبه مع ابنهما خونسو من معبد الكرنك؛ إذا فهي زائرة لا مَزورة. كما أن للمعبودة موت معبد مجاور خاص بها، فلو أراد آمون زيارتها لزارها في معبدها الخاص بها. وكذلك الأمر مع خونسو الإبن، فله معبده كذلك بمنطقة الكرنك.

---

(١) أحمد بدوي: في موكب الشمس، القاهرة ١٩٥٠، ٢: ٥١٥.

(٢) Wb. I, 68; O.R. FAULKNER, *A Concise Dictionary of Middle Egyptian*, Oxford, 1991, p.16.

(٣) سيد توفيق: المرجع السابق، ١١٠.

(٤) S. BICKEL, "The Inundation Inscription in Luxor Temple", In: *The Libyan period in Egypt*, Uitgaven, 2009, p.51.

الفرضية الرابعة

يرى بامينجر Pamminger أن معبد الأقصر بُني ليكن منزلًا للمعبود آمون_رع (القاطن في جبل بركل) على الأرض المصرية؛ على اعتبار أن هذا المعبود تم دمجه مع آمون طيبة منذ زمن الملك تحوتمس الثالث، حيث ظهرا برأس كبش بقرنين ملويين، والتي هي احدى سمات آمون رب منطقة بركل. واعتقد كذلك أن الملك امنحوتب الثالث قد رغب على تأكيد فكرة أنه ابنًا للإله آمون على الأرض بصورتيه المصرية والنوبية؛ لذا أقام معبد الأقصر بمحور جنوبي شمالي، لكي يربط بين الجنوب (أرض نباتا) والشمال (أرض مصر)(١).

ولكن لا دليل على ذلك الرأي، خاصة أن آمون بتلك الهيئة، قد ظهر بالفعل في معبد آمون بالكرنك وغيره من المعابد؛ لذا فلا حاجة إلى إنشاء معبد خاص. حتى العثور على بقايا مقصورة يُقال أنها مخصصة للإله آمون على نسق معبد آمون في جبل بركل من عهد الملك شباكا أمام معبد الأقصر، لهو أمر غير مؤكد صحته(٢).

الفرضية الخامسة

أن معبد الأقصر إنما بُني لعبادة ثالوث مدينة طيبة، آمون، موت وخونسو(٣). ولكن إذا نظرنا بشيء من التدقيق، لعلمنا أن لكل معبود من هذا الثالوث له معبد خاص به، وهم متجاورين في منطقة الكرنك؛ وبالتالي لا حاجة لتشييد معبد لهم مجاور وقريب لمعابدهم الخاصة.

---

(١) P. PAMMINGER, “Amun und Luxor. Der Widder und das Kultbild”, *Beiträge zur Sudanforschung* 5, 1992, S.137.

(٢) المكتشفات من تلك المقصورة فقط بابان ورصيف من حجر الجرانيت الوردي، انظر:
Ch.C. VAN SICLEN, “A Kiosk (?) of Shabako at Luxor Temple”, *VA* 6, 1990, pp.177-183.

(٣) محمد أنور شكري: العمارة في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٠، ١٩٩؛ رمضان عبده علي: حضارة مصر القديمة منذ أقدم العصور حتى نهاية عصور الأسرات الوطنية، القاهرة ٢٠٠٥، ٣: ٨٣.
M.-A. CALMETTES, *La création du monde dans l’Égypte ancienne*, Paris, 2016, p.4.

الفرضية السادسة

أن معبد الأقصر عبارة عن مقصورة كبرى لعبادة الملك العائش والمقدس، وكذلك لإقامة احتفالات ملكية مثل عيد الأوبت، من شأنها أنها تجدد الملكية المقدسة للملك أمنحوتب الثالث من خلال تجديد (كا kA) الخاصة بالملك بها يجدد شرعيته في الحكم بالتبعية[١]. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فما من سبب يدعو ملوك مصر اللاحقين على الملك أمنحوتب الثالث أن يكملوا تشييد ذلك المعبد إن كان خاصًا بتجديد «كا» الخاصة بذلك الملك فقط.

الفرضية السابعة

بالنظر إلى التصميم المعماري لمعبد الأقصر على الأخص فإنه يتفق مع تفاصيل الهيكل العظمي للإنسان، فهو يبرز الهيئة التشريحية للرجل. فعلى سبيل المثال، الحجرات الداخلية هي بمثابة تجسيد للأجهزة والمراكز العصبية (شكل ١)، وذلك كنوع من التفسير الفلسفي للعمارة المصرية القديمة[٢].

(١) موت الآلهة هو موت رمزي، إنما تموت رمزيًا لتوارث ملكية حكم الأرض بين الآلهة. وذلك الأمر نراه مع الملوك من البشر، فكما أن الملك يموت ويأتي من بعده آخر، إلا أن الملكية في ذاتها لا تنتهي لكن تستمر من ملك إلى آخر. انظر:

L. BELL, "Luxor Temple and the Cult of the Royal Ka", *JNES* 44, 1985, p.294; Id., "The New Kingdom "Divine" Temple: The Example of Luxor", in: *Temples of Ancient Egypt*, (ed.) B.E. Shafer, London - New York, 1997, p.130.

هذا بالإضافة إلى أن kA «كا» الملك تمثل المظهر المقدس الذي يجسد بخلوده الذاتي خلود الملك؛ لذلك يتم تقديس الملوك بعد وفاتهم في صورة كا «القرين» الخالد، وليس في صورة Xt غت «الجسد» الفاني أو bA «الروح» المرتبطة بذلك الجسد، بعكس kA كا المستقلة في ذاتها، ومن هنا تبرز علاقتها بالخلود.

(٢) R. ARNOLD, *Le Temple dans l'Homme*, Le Caire, 1949, p.92.

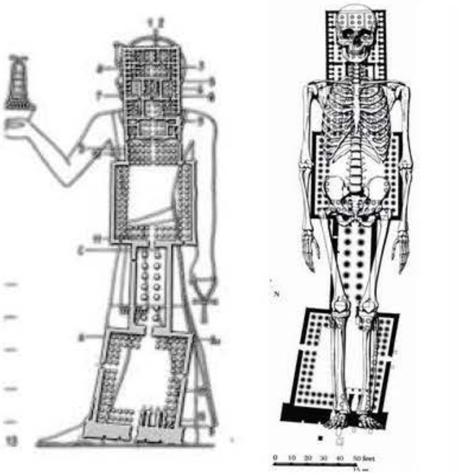

شكل (١)
التأكيد على أن معبد الأقصر يتفق في تصميمه مع هيكل الإنسان

ذلك الإفتراض يأخذنا بعيدًا عن حقيقة فكر وفلسفة المصري القديم حول تشييده لتلك المعابد، فمن المعلوم أن التصميم المعماري للمعابد يتركز على مجموعة من العناصر المعمارية المتشابهة وإن تعددت، منها قدس الأقداس، القاعات المغطاة، الأفنية المفتوحة، والصروح. وهي عناصر معمارية تخدم تفاصيل طقوسه الدينية، منها تناسق مساحة كل عنصر على طبيعة وعدد زواره، فمثلًا الصالات المغطاة صغيرة المساحة لأنها تستقبل ضيوفًا من العابدين ذوي درجات اجتماعية عليا مثل العائلة المالكة أو الوزراء أو حكام الأقاليم، في حين أن الأفنية المفتوحة كانت أكبر مساحة، لأنها تستقبل عامة القوم من المصريين. وذلك الأمر تتشابه فيه أغلب المعابد الإلهية المصرية القديمة؛ وبالتالي فإن معبد الأقصر يتشابه في تصميمه مع المعابد الإلهية الأخرى المعاصرة. ومن ثم فإن أمر تفسير تصميمه المعماري على أنه يتشابه مع تفاصيل الجسد البشري لهو أمر بعيد تمامًا ولا يؤيده دليل ظاهر.

الفرضية الثامنة

اعتبر المصريون القدماء معبد الأقصر محطة استراحة من أجل آمون رب معبد الكرنك أثناء المراسم المرتبطة بتجديد العالم من خلال البعث المقدس (الولادة الإلهية) للملك في صورة قرينه (كا) في عيد الأويت[١].

و لكن أمر تشييد معبدًا لإستراحة موكب الآلهة اثناء احتفال بعيد الأويت لهو أمر مستبعد. فقد اعتاد ملوك ذلك العصر تشييد مقاصير صغيرة تؤدي ذلك الغرض، مثل المقصورة البيضاء للملك سنوسرت الأول الخاصة بالاحتفال الثلاثيني والمحفوظة بالمتحف المفتوح بالكرنك[٢]، أو مقصورة الملك أمنحوتب الأول[٣]، وكذلك مقاصير الملكة حتشبسوت وتحوتمس الثالث وغيرهم[٤].

الفرضية التاسعة

أن معبد الأقصر ما هو إلا مكان تواجد وسكنى، بل وتقديس (كا) «القرين» سواءًا للإله أو الملك[٥]؛ بدليل:

أ) أن قرين الملك أمنحوتب الثالث ظهر بوضوح في ذلك المعبد (شكل ٢).

---

(١) B.J. KEMP, *Ancient Egypt. Anatomy of Civilization*, London – New York, 2006, p.270.

(٢) J.C. BURDEN, *The Architecture of the White Chapel of Senuseret I. The Making of a Middle Kingdom Monument*, Berkeley, 1992, p.31; E. Blyth, *Karnak. Evolution of a Temple*, London – New York, 2006, p.15-20.

(٣) C. GRAINDORGE et Ph. MARTINEZ, "Karnak avant Karnak: les constructions d'Aménophis Ier et les premières liturgies amoniennes", *BSFE* 115, 1989, pp.36-64.

(٤) D.A. WARBURTON, *Architecture, Power and Religion. Hatshepsut, Amun and Karnak in context*, Berlin, 2012, p.232.

(٥) L. BELL, "Luxor Temple and the Cult of the Royal Ka", p.270.

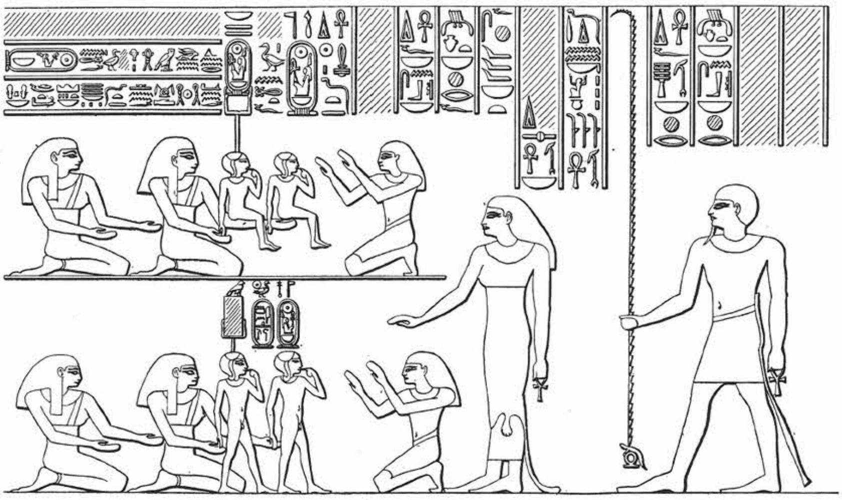

شكل (٢)
التركيز على ظهور (كا) الملك أمنحوتب الثالث في حجرة الولادة المقدسة بمعبد الأقصر

ب) أن تماثيل الملك رمسيس الثاني الضخمة في المعبد كانت تمثل تجسيدًا بطريقة أو أخرى فكرة القرين الملكي المقدس(١).

د) هناك منظر من العصر الروماني بممر معبد الأقصر يظهر المعبود آمون محتضنًا الملك من الخلف بذراعين تماثلان ذراعا (كا) (٢).

ولكن لم تظهر (كا) الملك فقط بل ظهر الملك بجسده أيضًا، وما كان تصوير (كا) الملك أمنحوتب الثالث إلا فيما يخص الولادة الإلهية له فقط كموضوع واحد ضمن موضوعات أخرى مصورة. وفيما يخص تماثيل رمسيس الثاني في فنائه المفتوح بالمعبد، فليس فيها ما يدل على كونها تماثيل تجسد (كا) الملك. أما منظر العصر الروماني فهو يشير إلى لمحة من الحماية ولا علاقة له بفكرة ال(كا).

(١) Ibid., p.271.

(٢) U. SCHWEITZER, *Das Wesen des Ka im Diesseits und Jenseits der alten Ägypter*, Glückstadt-Hamburg-New York, 1956, S. 58.

ثانيًا، رؤية مقترحة حول رمزية المعبد

في ضوء ما سبق ذكره ونقده، فإن هناك رمزية كامنة جعلت من إنشاء معبد الأقصر تجسيدًا لحدث جلل يمجد آمون إله تلك المدينة العريقة. إذًا سنحاول إلقاء الضوء على أهمية منطقة معبد الأقصر من خلال الأدلة والشواهد الأثرية والتاريخية التالية:

١) أرض معبد الأقصر كانت مبجلة قبل زمن الملك أمنحوتب الثالث ومن بعده، ولم يقتصر الأمر على أمنحوتب الثالث، فمن الثابت أن:

أ- الملك سوبك_حوتب الثاني من عصر الأسرة الثالثة عشرة له قطع حجرية تشهد على أن العمران بدأ منذ ذلك الحين، إن لم يكن قبل ذلك في عصر الدولة الوسطى، ويخاصة مع بداية عصر الأسرة الثانية عشرة على يد الملك أمنمحات الأول.

ب- الملك أحمس الأول أقام معبدًا للإله آمون في منطقة سُميت ipt-rsyt «الحرم الجنوبي»، وفقًا لنص مؤرخ بالعام ٢٢ من عهده بمحاجر المعصرة في منطقة طرة[١]، ونصه: «في العام ٢٢ من (حكم) جلالة ملك مصر العليا والسفلى، ابن رع: أحمس، معطى الحياة، كان يفتتح المحجر بعد أن توقف، وذلك لبناء معابد ملايين السنين المسماة معبد ... ومعبد بتاح الرب الطيب، و(كذلك) Imn m Ipt-rsyt آمون في الحرم الجنوبي»[٢]. وذلك معناه أن هناك معبدًا بُني في منطقة «الحرم الجنوبي» زمن الملك أحمس الأول.

ت- الملكة حتشبسوت مع تحوتمس الثالث أقاما ثلاث مقاصير حجرية، يقعان الآن في فناء رمسيس الثاني المكشوف، وذلك من أجل إستراحة تماثيل ثالوث مدينة

(١) K. SETHE, *Urkunden der 18. Dynastie*, I, Liepzig, 1914, S.13, (25).

(٢) Ibid., S.25.

طيبة في قواربهم المقدسة أثناء الإحتفالات الدينية(١). وإنما ذلك ليدل على أن تلك البقعة كانت مقصدًا للزيارة ومحلًا للإقامة فيها بغرض ديني هام من جانب آلهة الثالوث بطيبة.

٢) توقف العمل في إنشاء المعبد بعد وفاة الملك أمنحوتب الثالث مباشرة إلى أن تم الإعتراف بالملك توت_عنخ_آمون حاكمًا على طيبة كما يتضح من لقبه HqA Iwnw Sma «حاكم ايونو الصعيدية (طيبة) » بعد عودته لديانة آمون(٢). ولعل عدم قيام أمنحوتب الرابع (اخناتون) باكمال بناء معبد أبيه في بداية عهده، برغم أن اخناتون استقر في طيبة أربع سنوات على الأقل قبل هجرته إلى آخت_آتون (تل العمارنة) (٣)؛ لأن معبد الأقصر كان ذو صلة بآمون أكثر من مجرد كونه معبدًا يخص شرعية أبيه أمنحوتب الثالث. فكان اخناتون يتجاهل بناء أي معبد يخص آمون بصفة رئيسية.

٣) من المعلوم أن المعبود آمون ظهر في هيئتين هما هيئة بشرية خالصة، مرتديًا تاجًا بريشتين طويلتين، وأحيانًا زُين تاجه بقرص الشمس وسُمي حينها آمون_رع لتقوية أصالته، فهو معبود غير أزلي، بل ظهر منذ الدولة الوسطى كما أسلفنا، وظهر كذلك في

---

(١) L. HABACHI, "The Triple Shrine of the Theban Triad in Luxor Temple", MDAIK 20, 1965, pp.93-96; M. ABD EL-RAZIK, "Luxor Studies", MDAIK 27, 1971, pp.223-224.

(٢) D.P. SILVERMAN, "The Treasures of Tutankhamun", Archaeology 29, No. 4, 1976, p.241.

(٣) تلك المدة الزمنية كانت بعد توليه العرش خلفًا لوالده أمنحوتب الثالث، وهي بخلاف سنوات طفولة إخناتون التي قضاها في طيبة بعد ولادته فيها، انظر:

D. MONTSERRAT, Akhenaten. History, Fantasy and Ancient Egypt, London – New York, 2000, p.31.

ولعل العثور على بقايا تمثال على هيئة أبو الهول للملكة نفرتيتي مع العديد من أحجار «التلاتات» من عهد اخناتون معه في أطلال ملحقات معبد الأقصر لا يشير إلى أعمال انشائية له، فلربما تم جلبها من أطلال معبد الكرنك بعد تفكيكها في أعقاب طرد اخناتون من طيبة، بخاصة وأن كثير من تلك الأحجار أُعيد استخدامها في المنطقة السكنية لطيبة خلال العصور الوسطى، انظر:

W.R. JOHNSON, "An indurated-limestone sphinx fragment of Nefertiti in the Luxor Temple blockyard", in: Essays for the library of Seshat: studies presented to Janet H. Johnson on the occasion of her 70th birthday, (ed.) R.K. Ritner Chicago, 2017, p.79.

هيئة الكبش بقرنين ملتويين، ومُزجت هيئته أحيانًا بجسد بشري ورأس الكبش(١). ومن بين المعبودات التي ارتبط بها في معبد الأقصر هو ظهوره في هيئة المعبود مين رب الخصوبة والنماء في مصر القديمة، إذًا لابد وأن يكون ذلك الموقع وثيق الصلة بالخلق والخصوبة.

٤) يُلاحظ أن جميع المعبودات في معبد الأقصر، وحتى جميع صور آمون فيه، لم تأخذ أي من الألقاب التقليدية التي تثبت انتماء المعبد لإله أو أكثر مثل nb / xnty / Hry-ib ip.t-rsy.t (٢).

٥) ظهور مصطلح sSd ضمن مناظر الولادة الإلهية للملك أمنحوتب الثالث بمعبد الأقصر، والتي يمكن ترجمتها: «منح (شخصًا) ولادة (من جديد)» (٣). وذلك يشير إلى أن المعبد له علاقة بتجديد الحياة للملوك كما للآلهة، ومن ثم فذلك المعبد مشيد من أجل ذكرى ولادة أو بمعنى آخر خلق الإله آمون وتجديد الحياة له، وبالتبعية تجديد الحياة لملوك على صلة بذلك المعبد، ومنهم أمنحوتب الثالث.

٦) كان المعبد يعتبر مركزًا للكون، ومنه الخلق بدأ؛ بدليل أن الحجرة رقم ١٧ بالمعبد إلى الخلف من مقصورة الإسكندر أخذت محورًا شرقيًا – غربيًا، لذلك كانت تحصل على ضوء فقط من نوافذ صغيرة أعلى الأبواب. وقد فسر Brunner أن ذلك المحور كان مقصودًا بدليل وجود منظرين لمركب الشمس، أحدهما على الجانب الشرقي للحجرة وخاص بمركب «معنجت»، والآخر على الجانب الغربي وخاص بمركب «مسكتت»، وعليه فتلك الحجرة على صلة برحلة الشمس في السماء الدنيا، بمعنى أنها التي تضم الشرق مع الغرب، ولذلك سُمي المعبد آنذاك بمسمى Axt في

---

(١) L. TÖRÖK, The Image of the Ordered World in Ancient Nubian Art, Leiden, 2002, p.48.

(٢) P. PAMMINGER, op.cit., p.95.

(٣) Z. el-KORDY, "Le bandeau du Nouvel An", in: Mélanges Adolphe Gutbub, Montpellier, 1984, p.126.

عصر الدولة الحديثة أي «أفق» ربما بمعنى «الكون»، لذلك فإن المعبد هو يرمز للكون(١).

وقد يؤكد ذلك بالفعل أن المعبد المصري القديم عامة ومعبد الأقصر يعتمد في أسلوب تشييده المعماري على فكرة انطباق السماء على الأرض، وذلك واضح جليًا من انخفاض مستوى ارتفاع سقف أجزاء المعبد تدريجيًا ليصل إلى أدنى مستوياته عند حجرة قدس الأقداس حيث الإله المتحكم في خبايا السماء والأرض أي الكون كله وأسرارهما، فيقول رمسيس الثاني عن آمون على جدران الفناء المفتوح الخاص به:

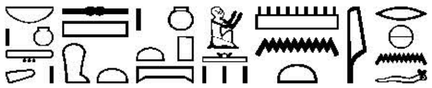

rx.n.f imnwt nw pt sStAw nb(wt) nw tA

"إنه (آمون) عرف خبايا السماء وكل أسرار الأرض"(٢)

وعليه، فإن معبد الأقصر يحمل في طياته علاقة بين التصميم والغرض الذي من أجله تم تشييد ذلك المعبد. فالإله الرئيس لمعبد الأقصر هو المتحكم في ذلك الكون من موقعه الذي لابد وأن يكون قد خُلق فيه أو ظهر إلى الوجود عليه؛ ومن ثم فموقع معبد الأقصر لذو علاقة بخلق ذلك الإله.

٧) التماثيل الإلهية المكتشفة في خبيئة فناء أمنحوتب الثالث والمحفوظة بقاعة الخبيئة بمتحف الأقصر معظمها يخص آلهة على علاقة بعملية وأسطورة الخلق، من أمثال

---

(١) H. BRUNNER, "Die Sonnenbahn in ägyptischen Tempeln", in: *Archäologie und Altes Testament, Festschrift K. Galling*, (Ed.) A. Kuschke, Tübingen, 1970, S.27-34; B. JANOWSKI, "Der Tempel als Kosmos: zur kosmologischen Bedeutung des Tempels in der Umwelt Israels", in: *Egypt - temple of the whole world. Studies in honour of Jan Assmann*, (ed.) S. Meyer, Leiden, 2003, pp.163-186.

(٢) M. ABD EL-RAZIK, "The Dedicatory and Building Texts of Ramesses II in Luxor Temple: I: The Texts", *JEA* 60, 1974, p.125, §1; Id., "The Dedicatory and Building Texts of Ramesses II in Luxor Temple: II: Interpretation", *JEA* 61, 1975, p.144 §1.

تمثال المعبود أتوم. كذلك هناك تمثال آخر للإله كا_موت_اف في هيئة الثعبان، والذي يعد أحد آلهة الخلق في العقيدة المصرية القديمة(١). وذلك يفسر سبب إخفاء تلك التماثيل تحت أرضية المعبد في فناء الملك أمنحوتب الثالث، فكأنها مدفونة وميتة، وسيأتي عليها يوم تبعث فيه من جديد. إذا فموقع المعبد له صلة واضحة بالخلق الإلهي.

٨) كلما شهدت أرض حدثًا دينيًا متعلقًا بالآلهة عند المصري القديم، كلما حاول تحديد حدود قداستها ببناء معبد ليحفظ لها قدسيتها عن غيرها.

٩) التصميم المعماري لمعبد الأقصر يحوي صالات مسقوفة وأفنية مفتوحة متنوعة الأحجام، مما يشير إلى كثافة أعداد الزائرين، وبالتالي كان معبد الأقصر مقصدًا للزيارة على الأقل في أوقات ومناسبات الأعياد، حتى أن الملك رمسيس الثاني أضاف للمعبد فناءًا مفتوحًا كبيرًا في عهده، ربما نتيجة عدم استيعاب فناء أمنحوتب الثالث لأعداد الزوار المتزايدة. ولعلنا نتساءل ما الداعي لزيارة ذلك المعبد إلا أن يكون له أهمية دينية تتمثل في قداسة موقعه لحدوث حدث جلل عليه متعلق بالإله آمون.

١٠) مثلت الأعياد الدينية مناسبات هامة عند المصريين الأقدمين، أهمها ما يدلل على وجود علاقات خاصة بين كل منها؛ لذا كانت تماثيلهم المقدسة تنتقل بواسطة قوارب على أكتاف الكهان برًا أو على قوارب كبرى عبر نهر النيل من أجل أن تعيد إحياء أحداث قديمة جدًا أو أزلية في وقت حدوثها، ولعلنا نستطيع التوصل إليها من خلال ما تبقى من نقوش متناثرة أو قصاصات من الأساطير. وعليه، فقد كانت معابدهم على علاقات دينية فيما بينهم. فعلى سبيل المثال، رحلة تمثال المعبودة حتحور المقدس، والذي ينتقل من معبدها في دندرة لزيارة تمثال المعبود حورس في معبد إدفو من أجل إعادة إحياء ذكرى الزواج المقدس بينهما سنويًا وفقًا لنقوش تلك المعابد

---

(١) G. HAENY, "Zum Kamutef", *GM* 90, 1986, S.33 f.

وروايات الأساطير[١]. وعليه، فوجود مناظر عيد الأوبت على جانبي ممر الأساطين العظيم بمعبد الأقصر ليدل على وجود نهر النيل كرابط بين معبدي الكرنك والأقصر من الناحية الرمزية، وبين فنائي أمنحوتب الثالث ورمسيس الثاني من الناحية المعمارية. وذلك الأمر الأخير له تفسير كما سيلي بيانه.

١١) من المعلوم أن عيد الأوبت هو العيد الشعبي والرسمي معًا. وكان عيد الأوبت يسمى Hb nfr n ipt «عيد الأوبت الجميل». ولم يُذكر في النصوص المصرية القديمة قبل الأسرة ١٨. وقد بدأ منذ عهد حتشبسوت يصبح سنويًا، وتحدد تاريخ بدايته منذ عهد تحوتمس الثالث، فيبدأ من يوم ١٥ من الشهر الثاني من فصل الفيضان، ويستمر لمدة ١١ يومًا، ثم طالت مدته إلى ٢٤ أو ٢٧ يومًا زمن الملك رمسيس الثالث[٢]. وارتبط هذا العيد بالفيضان، ففي الوقت الذي تموت فيه الأرض حين يصل مستوى النيل إلى أدنى مستوى في مياهه أثناء فترة الجفاف. وهكذا فإن آمون يكون قد وصل إلى مرحلة الموت الرمزي، مما يترتب عليه فوضى عارمة في الكون عامة وفي مصر خاصة مع توقف الزراعة وفقًا لإعتقاد أهل طيبة[٣]. وينتهي ذلك العيد مع بداية قدوم الفيضان الجديد إلى مصر مع بدايات فصل الصيف.

وكان يتوجب على الملك الحاكم أن يتوجه إلى طيبة حيث أبيه الإله آمون لكي يشارك في ذلك الإحتفال، وكذلك ليتلقى من الآلهة قوى وسلطات الشرعية في حكم مصر من خلال تجديد (كا) الملك أو إعادة ولادة الملك وقرينه من خلال طقوس سرية بين الإله والملك مرة كل عام[٤]، وذلك باعتباره ابن الإله وتجسيده على الأرض[٥].

---

(١) L. BELL, “The New Kingdom "Divine" Temple: The Example of Luxor”, in: *Temples of Ancient Egypt*, (ed.) B.E. Shafer, London - New York, 1997, p.134.

(٢) W. WOLF, *Das schöne Fest von Opet. Die Festzugsdarstellung im grossen Säulengange des Tempels von Luksor*, Leipzig, 1931, S.75.

(٣) R. ULMER, *Egyptian Cultural Icons in Midrash*, Berlin, 2009, p.90.

(٤) L. BELL, op.cit., p.157; R. Ulmer, op.cit.

(٥) G. ROBINS, *The Art of Ancient Egypt*, Cambridge, 2008, p.135.

ويبدأ ذلك الإحتفال في معبد الكرنك وينتهي في معبد الأقصر، وذلك وفقًا لنقوش الممر العظيم في معبد الكرنك الذي بدأ في نقشه توت عنخ آمون وتم الإنتهاء منه زمن الملك سيتي الأول[١]. ويقوم كبار الكهان فيه في حضرة الملك بتجديد ملابس وزينة تماثيل الآلهة المشاركة وحملها بواسطة قواربها على أعين الحاضرين والسير بها على أكتافهم عبر ممرات المعبدين ووسط ترانيم العابدين ودماء الذبائح وروائح البخور، وصولًا إلى معبد الأقصر فوق مياه النهر بعد توثيق تلك القوارب بزوارق عملاقة، ثم عودة منه برًا عبر طريق أبو الهول والمقاصير المطهرة التي استُخدمت بمثابة إستراحات لإراحة الكهان وتماثيل الآلهة من وعثاء السفر ومتاعب الإحتفال[٢].

وكان المعبود مين على علاقة بالفيضان باعتباره ذو صلة بالخصوبة والنماء التي يحملها فيضان النيل؛ لذا كان يشارك مين في احتفال الأوبت[٣].

١١) المعبد المصري القديم كان يمثل المكان الذي يشتمل على ازدواجية تكاملية هامة ما بين عالم الآلهة في السماء وعالم الالهة في الأرض، فنقوش جدران المعبد وأعمدته وأساطينه كلها تصور آلهة المعبد وكذلك من ساهموا في إنشائه من ملوك مصر. ومن المعلوم أن الملك ما هو إلا تجسيد للإله الأكبر على الأرض، مستمدًا شرعية سلطانه نتيجة لاختياره من الآلهة، ويحكم بين البشر بالقانون الإلهي المقدس المسمى «ماعت».

---

(١) *Reliefs and Inscriptions at Luxor Temple, I: The Festival Procession of Opet in the Colonnade Hall, with Translations of Texts, Commentary, and Glossary*, Chicago, II, 1998, p.15, fig.154.

(٢) B.M. BRYAN, "The Temple of Mute. New Evidence on Hateshepsut's Building Activity", in: *Hateshepsut from Queen to Pharaoh*, (ed.) C.H. ROEHRIG, New York – London, 2005, p.181; R. Ulmer, op.cit., p.93; M. VERNER, *The Temple of the World. Sanctuaries, Cults and Mysteries in Ancient Egypt*, Cairo – New York, 2012, pp.268-271; M.D. Litwa, *Becoming Divine, An Introduction to the Deification of the Western Culture*, Oregon (USA), 2013, p.16.

(٣) R. Ulmer, op.cit., p.90.

وعليه فما يحدث للإله يجب أن يحدث للملك، فكما وأن الإله قد تمت ولادته المقدسة أو عملية خلقه بنفسه أو بواسطة آلهة أخرى أقدم منه، فكان حريًا الملك أن يتحرى التشبه بآلهته، لذا كان يعلن الملك ولادته المقدسة أيضًا.

وفي معبد الأقصر، عندما أعلن الملك أمنحوتب الثالث عملية ولادته المقدسة في معبد الأقصر خاصة ودون معبد آخر، إنما كان يتشبه بالإله آمون بالمثل في ولادته أو عملية خلقه الإلهية. وذلك يؤكد أن معبد الأقصر لهو على صلة وثيقة بمناسبة أسطورية تتعلق بالخلق سواء للملك وهو أمر مؤكد من مناظر حجرة الولادة المقدسة للملك أو تتعلق كذلك بمناسبة أسطورية بخلق الإله آمون ذاته.

١٢) معبد الأقصر هو أكثر الأماكن التي ظهر فيها آمون في صورة آمون_مين، تلك الهيئة المرتبطة بالإله مين رب الخصوبة ومن ثم القدرة على الخلق(١).

١٣) معبد الكرنك شيد فيه تقريبًا كل ملوك مصر أجزاءًا معماريًا كثيرة، بعكس معبد الأقصر الذي ساهم بعض الملوك فقط في بنائه.

١٤) العثور على كتابات من زمن الإسكندر الأكبر وفيليب أريدايوس تشير إلى وجود ترميمات لمعبد الأقصر حينها(٢)؛ ما يؤكد اهتمام الإغريق بإعادة الإحتفالات الدينية المرتبطة بهذا المعبد، ومنها بالتأكيد عيد الأوبت، وذلك في إطار الدعاية السياسية للملوك الإغريق على أنهم حلوا محل الفراعنة الوطنيين في الحكم، وبالتالي عودة العمل بالتقاليد الدينية القديمة التي ربما توقفت زمن الإحتلال الفارسي الثاني.

١٥) يتواجد فوق أطلال معبد الأقصر كنيسة هُجرت، يعلوها مسجد أبو الحجاج

---

(١) بدا الإرتباط بين آمون والإله مين بصفاته التي اقتبسها آمون منذ اللقب kA-mwt.f أي «ثور أمه» زمن عصر الأسرة ١٢ بمعنى أنه أنجب نفسه من أمه بنفسه. وهو لقب اتُّخذ فيه الثور رمزًا للخصوبة والفحولة الكاملة، وانتقلت دلالة ذلك اللقب إلى القدرة على تخصيب الأرض، ومن ثم زيادة المحاصيل ووفرتها. انظر:
R.H. WILKINSON, *The Complete Gods and Goddesses of Ancient Egypt*, London, 2003, pp.93-115.

(٢) M. ABDER-RAZIQ, "Ein Graffito der Zeit Alexanders der Grossen im Luxor-tempel", *ASAE* 69, 1983, S. 211.

من العصر الفاطمي[١]. ولعل استمرار الحفاظ على الموقع كمكان للتعبد عبر العصور القديمة والحديثة، بل والمعاصرة، ما يشير إلى استمرار توارث قداسة ذلك الموقع في نفوس أهل مدينة الأقصر.

١٦) يقدم لنا مذهب التفكير الفلسفي الخاص ببداية الخلق لدى مفكري مدينة طيبة (واست) توضيحًا حول أهمية تلك المدينة دينيًا. فقد رُوي أن الإله الأكبر الخالق أوجد ذاته في هيئة الثعبان، واستمر فردًا خفيًا فلم يوجد أحد يستطيع رؤيته، حتى تم عهدًا قدره لنفسه، لذا أسموه عابدوه Imn «آمون» بمعنى «الخفي»[٢]، ونعتوه km-At.f بمعنى «الذي أتم زمانه أو عهده» في هيئة الثعبان[٣]. وحين ذاك تخير آمون لنفسه مكانًا قدسيًا خفيًا قرر أن يأوي إليه ويستقر فيه للأبد. وأراد آمون كم_آتف أن يخلفه في الكون كيانًا آخر دعوه عابدوه بمسمى آمون، ونعتوه بأنه ir – tA أي «الذي خلق الأرض» بما ويمن فيها، واستقر بمدينة طيبة دهرًا[٤]، حتى أراد أن يخلق كيانًا آخر ثالثًا يخلفه في عمارة الأرض وحكمها قبل أن يلحق بسلفه إلى ما يسمى بالكهف السحيق[٥]. ونسبوا إلى آمون هذا لقب nsw – nTrw أي «ملك الآلهة»[١]، أو

---

(١) عُثر في جوانب ذلك المسجد على الكثير من الكتل الحجرية المأخوذة من جدران مبان ملحقة من المعبد لكنها اختفت على مر السنوات نتيجة تلك الأعمال. انظر:

M. BORAIK, "Inside the Mosque of Abu El-Haggag: rediscovering long lost parts of Luxor Temple", *Memnonia* 19, 2009, pp. 123-124, pls. XVI-XXI.

(٢) لعل ذلك الإسم يحتوي على معنى الصفة في أصله، بمعنى أنه كان خفيًا بحيث أنه كان محجوبًا عن الإدارك رغم وجوده، فقد وصفته نصوص تمجيده بأنه كان أبعد من السماء وأعمق من العالم السفلي (في الأرض). المصدر: بردية ليدن رقم (I-350)، انظر:

R.H. WILKINSON, op.cit., p.39.

(٣) E. CRUZ-URIBE, "The Khonsu Cosmogony", *JARCE* 31, 1994, p.188.

(٤) وفي رواية أنه ذهب إلى الأشمونين في صورة الإله خونسو على هيئة التمساح عبر مياه نون ضمن الثامون. Ibid.

(٥) لعل موقع ذلك الكهف السحيق هو / DmA TAmt / DAmt حيث الضفة الغربية للأقصر، ويمكن تحديده رمزيًا بربوة يُفترض وجودها في أسفل معبد مدينة هابو الصغير. انظر:

nb nswt-tAwy «رب عروش الأرضين»(٢).

وذلك الكيان الإلهي الأخير هو الذي اختار طيبة لتكن مقره الذي يشرف منه على حكم عالم الآلهة الأخرى كما يتضح من استخدام لفظ nst أي «عرش» في صيغة الجمع ليدل على أن موقع أو مكان معبد الكرنك هو بمثابة مقر جميع العروش. بالإضافة إلى أنه الإله الذي يختار الملوك من البشر لينيبوا عنه في حكم الناس بأحكامه ووفقًا لأوامره العليا، وبالطبع يحاربون بإسمه ويتوسعون بفضله، وأصبح الملك ابنًا لآمون حتى أضحى الإله آمون متجسدًا في الفرعون ذاته(٣).

ومن هنا يأتي الربط بين المكان أو الموقع الذي اتخذه «آمون» ملك الآلهة مقرًا لحكمه وبين مسمى موقع معبد الكرنك الكبير وهو 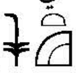 ipt swt الذي وردت روايات جمة حول معناه ما بين «أكثر الأماكن قدسية» أو «الحرم المقدس»(٤)، أو ipt-nswt أي «الحريم الملكي»(٥)، وأحيانًا مسمى pr – Imn أي «ضيعة/ بيت_آمون»(٦)، حيث تضُم الأراضى التى تخص ممتلكات الإله آمون. وهكذا فذلك المعبد هو مقر عمل آمون حيث يتابع شئون مخلوقاته، قصر آمون ملك الآلهة، ولم يكن مقرًا له علاقة بتل الخلق أو بداية الكون(٧).

K. VANDORPE, "City of Many a Gate, Harbour for Many a Rebel", in: *Hundred-Gated Thebes. Acts of a Colloquium on Thebes and the Theban Area in the Graeco-Roman Period* (*P.L. Bat.* 27), (ed.) S.P. VLEEMING, Leiden, 1995, p.230 ff.

(١) R.H. WILKINSON, op.cit., p.67.

(٢) عبد العزيز صالح: «فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة»، مجلة المجلة رقم ٢٦، ١٩٥٩، ص ٤٤.
Wb. II, 322 (10); O.R. FAULKNER, op.cit., p.139; R.H. WILKINSON, op.cit., p.96.

(٣) A.J. SPALINGER, *War in Ancient Egypt*, Malden – Oxford, 2005, p.75-77.

(٤) R.H. WILKINSON, op.cit., p.95.

(٥) *Wb.* I, 67 (14-15).

(٦) *Wb.* I, 513 (11).

(٧) R.H. WILKINSON, op.cit., p.93.

ومسمى معبد الأقصر 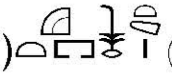 (var. 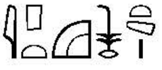) ipt-rsyt يجب أن يُترجم «الحرم الجنوبي» وليس «الحريم الجنوبي»(١)، لأن تلك اللفظة تدل صراحة على قداسة ذلك الموقع دينيًا؛ وعليه فهو حرم مقدس وليس مجرد مقر حريم للإله.

١٧) هناك علاقة وثيقة بين معبدي الكرنك والأقصر. فالمسافة بينهما لا تزيد عن ٣ كم. هذا بالإضافة إلى أن معبد الأقصر يتقدم مدخله طريقًا لتماثيل أبو الهول والذي يمتد إلى الشمال حيث معبد الكرنك(٢)؛ وبالتالي فمعبد الأقصر ذو علاقة بموقع معبد الكرنك، بمعنى أنه يكمل تلك المهمة ويضيف إليها.

١٨) كان Hb n Int «عيد الوادي»(٣)، الذي يتم الإحتفال به في أول الشهر الثاني من فصل الصيف Smw «شمو» منذ عصر الأسرة ١١ فصاعدًا عيدًا يجمع شمل الأحفاد الأحياء مع الأسلاف الأموات(٤). وفيه ينتقل المعبود آمون من معبده الكبير بالكرنك على البر الشرقي عابرًا نهر النيل إلى البر الغربي لطيبة من أجل زيارة المجموعات الجنزية لملوك مصر الراحلين مثل معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري أو معبد الملك رمسيس الثاني المسمى الرامسيوم، وذلك بالإضافة إلى مجموعة الملك الحاكم المعاصر الجنزية(٥).

---

(١) *Wb.* I, 68 (3); *PM*, II, 301.

(٢) D. AVNOLD, *The Encyclopedia of Ancient Egyptian Architecture*, Trans. By S.H. Gardiner and H. Strudwick, Cairo, 2003, p.135.

(٣) cf. Wb. I, 93 (9); G. HAENY, New Kingdom "Mortuary Temples" and "Mansions of Millions of Years", in: (ed.) B.E. Shafer, *Temples of Ancient Egypt*, London - New York, 1997, 26.

(٤) L. BELL, op.cit., p.136.

(٥) A.G. MCDOWELL, "Contact with the Outside World", in: *Pharaoh's Workers. The Villagers of Deir el Medina*, (ed.) L.H. Lesko, Ithaca - London, 1994, p.56; L. Bell, op.cit., p.137; J. ASSMANN and D. Frankfurter, "Sacred Times and Spaces. Egypt", in: *Religions of Ancient World.* A Guide, (ed.) S.I. Johnston, London, 2004, p.247.

ولعل أفضل مصدر لدراسة أحداث ذلك العيد هو نقوش مقبرة آمون_إم_ون أحد عمال منطقة دير المدينة زمن الملكين سيتي الأول ورمسيس الثاني، حيث يظهر الملك رمسيس الثاني في صحبة الوزير باسر

إنما يبدو أن ذلك العيد يحمل في طياته عمقًا أرحب عن مجرد زيارة تلك المجموعات الجنزية فقط، بل كان الأمر يتلخص في زيارة الإله آمون إلى أجداده الموتى من الآلهة أو القاطنين في الغرب من أمثال آمون كم_آتف «الذي أتم زمانه» أو آمون_إير_تا «خالق الأرض».

١٩) أن الملك سيتي الأول ظهر مع قرينه على الحائط الجنوبي لمر الأعمدة الكبرى بمعبد الأقصر (كما سبق ذكره)، وكذلك تماثيل الملك رمسيس الثاني الصغيرة التي كانت تُحمل على القوارب المقدسة مع الآلهة في الإحتفالات الدينية الكبرى[١]. وهذا الظهور المزدوج للملك وقرينه لهو خير دليل على أن معبد الأقصر له علاقة بفكرة الخلق. فكما هو معلوم أن خنوم عندما كان يخلق البشر على عجلة الفخار، فإنه كان يخلق الجسد والقرين معًا.

٢٠) صور الملك أمنحوتب الثالث نفسه مولودا للاله آمون من الملكة موت_م_أويا في حجرة الولادة بمعبد الأقصر، كما وصف نفسه أيضًا بأنه «البيضة الممتازة المولودة من آمون حيث Hwt-sr(w) قاعة القضاة»، والذين كانوا بمثابة شهود على هذا الحدث[٢]. وهذا يؤكد فكرة أن ذلك المعبد على صلة بخلق الملك أمنحوتب الثالث، وما من داعي لتسجيل هذا الأمر إلا لكون أرض معبد الأقصر شهدت خلقًا هامًا من قبل، لابد وأنه متعلق بالآلهة.

وهكذا من الشواهد اللغوية والأثرية السابقة، يمكن التأكيد على أن أرض معبد الأقصر كانت مقدسة عند المصريين الأقدمين بسبب كونها لها علاقة وطيدة

والكاتب أمون_إم_أوبت، وهو يحرق البخور وفي استقبال مركب الإله آمون_رع في جبانة دير المدينة (st-mAat) التي تقصد معبد ملايين السنين للملك سيتي الأول.

A.G. MCDOWELL, loc.cit.

(١) L. BELL, "Luxor Temple and the Cult of the Royal Ka", p.271.

(٢) H. BRUNNER, *Die Geburt des Gottkönigs. Studien zur Überlieferung eines altägyptischen Mythos*, Wiesbaden, 1986, S.24, pl.2.

بخلق آمون فيها، حيث ظهر مرتبطًا بالمعبود مين؛ ولذلك يحتفلون فيها بعيد الأوبت تخليدًا لذلك الحدث الديني الكبير من ناحية، وليحصل آمون على تجديد قدراته وخصوبة أرض مصر لمدة عام كامل حتى يحين موعد العيد الجديد. ومن أجل ذلك، حاول الملك أمنحوتب الثالث اعلان ولادته في ذلك الموقع عينه.

ومن هنا يقترح الباحث أن معبد الأقصر كان تجسيدًا معماريًا لأسطورة الخلق رمزيًا. فمن الملاحظ أن أرضية المعبد ليست مستوية كلها كما هو الحال في معبد الكرنك المجاور، بل ولذات الإله الرئيس. إنما أرضية معبد الأقصر في بدايتها مستوية تمامًا عند فناء رمسيس الثاني، أما في جزئها الأخير من بداية ممر الأساطين العظيم فأرضية المعبد تبدو متصاعدة تدريجيًا باتجاه الجنوب، وكأنها تمثيل جغرافي لأرض مصر. فأرضية ذلك الفناء في شمال المعبد كأنها تمثيل لأرض مصر السفلى (الدلتا) المنبسطة. فيما أن فناء أمنحوتب الثالث أرضيته منحدرة صعودًا حتى قدس أقداس المعبد، وكأنها تجسد أرض مصر العليا (الصعيد) ذات الطبيعة الجغرافية ذاتها. بالمشاهدة من خارج المعبد لأجزائه، نلاحظ أن هناك فارق واضح بين أرضية الجزء الشمالي حيث فناء رمسيس الثاني، وهو الأكثر انخفاضًا عن أرضية الجزء الجنوبي حيث فناء أمنحوتب الثالث. ثم هناك ارتفاع آخر في أرضية الجزء المعماري الجنوبي المغطى حتى قدس الأقداس(١). لذلك نجد للأبواب الجانبية لفناء أمنحوتب سلم من درجتان، بعكس الباب الجانبي للجزء الجنوبي المغطى فيُصعد إليه بأربع درجات من الخارج.

---

(١) وهذا الارتفاع في أرضية الجزء المعماري المغطى بسقف والخاص بالملك أمنحوتب الثالث في معبد الأقصر، أُشير إليه وكأنه مبني فوق منصة عالية، انظر:

R. PREYS, "Architecture et image d'architecture dans le temple de Louxor", *BIFAO* 113, 2013, p.327, fig.4.

شكل (٣)
ارتفاع أرضية الجزء الجنوبي من معبد الأقصر الذي يُصعد إليه بدرجات سلم من الخارج

ومن ناحية أخرى، يوجد الممر ذو الأساطين الضخمة ضيقًا ممتدًا بشكل طولي من الجنوب إلى الشمال، وكأنه يربط بين الفنائين كمثل نهر النيل بمجراه الضيق الذي يربط مصر العليا بمصر السفلى. ولعل ما يؤكد ذلك وجود مناظر مراكب احتفالات عيد الأوبت على جانبي ذلك الممر فقط[1]، دون الأجزاء الأخرى ذات الجدران المتسعة والمناسبة أكثر لتصوير ذلك العيد الهام لمصر ولزائري المعبد بل والمعبد ذاته (شكل ٤). وهكذا تبدو الأساطين الضخمة على جانبي ذلك الممر وكأنها نباتات بردي ذات زهور متفتحة على ضفتي النهر.

(١) بهاء الدين إبراهيم محمود: المعبد في الدولة الحديثة في مصر الفرعونية (تنظيمه الإداري ودوره السياسي)، القاهرة ٢٠٠١، ٦٩.

شكل (٤)
ممر المعبد وانحدار أرضيته تدريجيًا باتجاه الجنوب

ولعل ما يؤكد تلك الرؤية السابق ذكرها، أن محور التخطيط المعماري لمعبد الأقصر يتجه من الجنوب إلى الشمال (شكل ٥)، وكأنه يذّكر باتجاه امتداد مصر الجغرافي المعمور، والذي حدده وادي نهر النيل. وذلك على عكس المفترض بأن يكون محوره مماثل لمحور معبد الكرنك الرئيس والمرتبط برحلة الشمس من الشرق إلى الغرب والعكس، أو حتى بفكرة تعامد أشعتها على قدس الأقداس المعروفة.

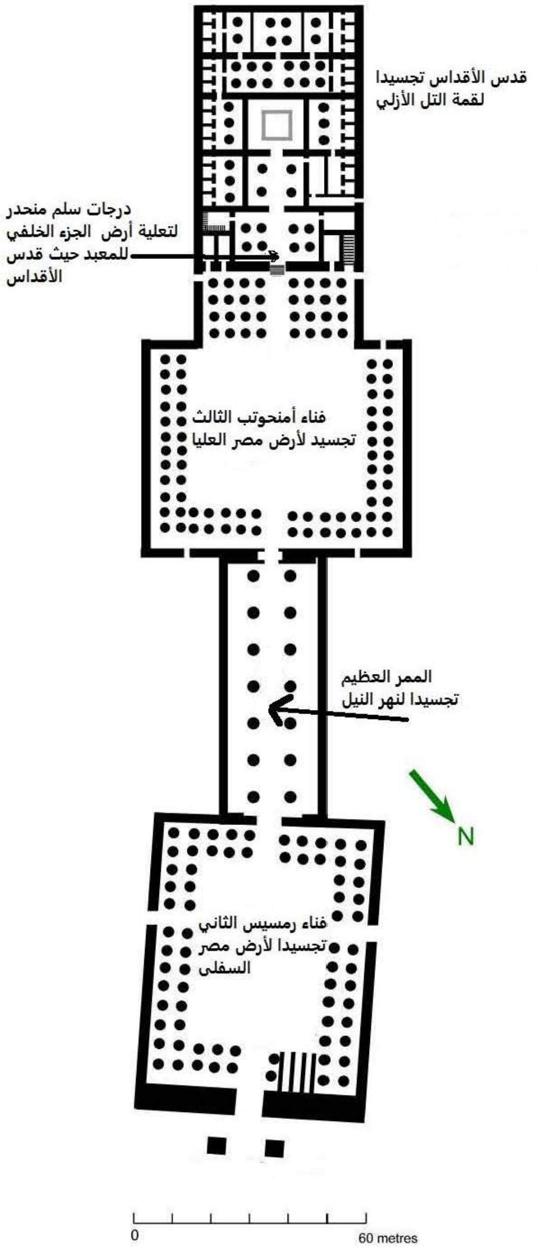

شكل (٥)

معبد الاقصر بانحدار أرضيته اعلان بتجسيد مصر وأسطورة الخلق

وكذلك يؤكد الباحث على أن ذلك الإنحدار في أرضية معبد الأقصر، والذي يستمر حتى يصل إلى ذروته عند قدس أقداس المعبد، لهو تجسيد لقمة التل الأزلي الصاعدة. ففي قدس أقداس المعبد يقبع المعبود آمون_مين، فيما كان وفقًا لأسطورة خلق آمون، يعتلي قمة ذلك التل الأزلي حين تم خلقه من ناحية، وحتى يرتبط بفضلها مع قوى التل الأزلي الخصبة ويمنح نفسه التجدد، فقد كان مين يوصف بأنه Dsr-a «ذو اليد المقدسة»(١).

وقد يساند تلك الرؤية أيضًا وجود تصوير منقوش للتل الأزلي الذي ينبع منه فيضان النهر على الجدار الجنوبي لفناء رمسيس الثاني، ويعلوه طائر (بنو) (شكل ٦)(٢). بل وهناك نص صريح يتحدث عن وجود التل (الأزلي) في طيبة منذ بدء الخليقة واستقرار آمون عليه، فيقول رمسيس الثاني على أحد جدران الفناء المفتوح الخاص به عن آمون:

gm.n.f WAst irt Ra m qAA xpr hAt Dr wn [tA] pn

"فقد وجد (آمون) طيبة، عين رع، مثل تل (أزلي)، قد برز من بداية (الوجود) ومنذ أن خُلقت تلك [الأرض]" (٣).

(١) K.M. COONEY, "The edifice of Taharqa by the Sacred Lake: ritual function and the role of the King", *JARCE* 37, 2000, p.35.

(٢) A. GARDINER, *Egyptian Grammar*, Oxford, 2001, p.470 (G. 32); E.G. Tolmatcheva, A reconsideration of the Benu-bird in Egyptian cosmogony", in: *Egyptology at the dawn of the twenty-first century: proceedings of the Eighth International Congress of Egyptologists*, II, (eds) Z. Hawass and L.P. Brock, Cairo, 2003, p.522.

(٣) M. ABD EL-RAZIK, "The Dedicatory and Building Texts of Ramesses II in Luxor Temple: I: The Texts", p.144, §1; Id., "The Dedicatory and Building Texts of Ramesses II in Luxor Temple: II: Interpretation, p.125 §1.

وحتى عندما أراد أمنحوتب الثالث تصوير الولادة المقدسة اختار لها الجزء الخلفي المحيط بقدس الأقداس المرتفع، وليس قدس الأقداس ذاته الذي لا ينبغي إلا لخلق الإله فيه.

شكل (٦)

نقش يصور التل الأزلي من فناء رمسيس الثاني

يبدو أن تخطيط المعبد موضوع مسبقًا ليحدد موقع حدوث تلك الأسطورة الهامة لإله مدينة طيبة، بل ورب الدولة كلها، آمون. فعندما مات أمنحوتب الثالث سار من بعده الإنشاء ببناء ذلك الممر العظيم، فيما أكمل مهندسو رمسيس الثاني المعبد ببناء فنائه الثاني في عهد ملكهم على ما يجب عليه أن يكون وفقًا لتخطيطه المسبق. فقد ورد على جدران فنائه النص التالي:

ir.f n.f ... Hr Dbwt-tA mty bAt kA(t) n sp-tpy st snm H(w) sDm sprwt n nTrw rmT ir.n n.f sA-Ra Ra-ms-sw-mry-Imn

"شيد (رمسيس الثاني) من أجله (آمون) [معبدًا] فوق الأرض الحقيقية، حيث منطقة أول حدث (الخلق الأزلي)، وموقع العطايا والعبادات وسماع شكاوى الآلهة والناس، لقد شيد (هذا المعبد) من أجله ابن–رع رمسيس_مري_آمون (الثاني)" [١].

(١) M. ABD EL-RAZIK, "The Dedicatory and Building Texts of Ramesses II in Luxor Temple: I: The Texts", p.125, §3; Id., "The Dedicatory and Building Texts of Ramesses II in Luxor Temple: II: Interpretation, p.147 §3.

وهكذا يمكن القول بأن المعبد بتصميمه يهب للإله رمزيًا، حين تم خلقه على ذلك التل المقدس، إمكانية أن يشرف بنفسه على أرض مصر ونيلها، بل وسكانها الذين ينوب عنهم هؤلاء القوم من زوار المعبد والمتعبدين.

الخاتمة

كان معبد الأقصر بمثابة تحديد لموقع الحرم المقدس الذي تم عليه خلق الإله آمون ملك الآلهة، والذي حكم الكون عامة ومصر خاصة. ونظرًا لعلاقة ذلك الموقع بالخلق فقد ظهر الإله آمون في صورة مين ومرتبطًا به، فهو إله الخصوبة والولادة والخلق. وعليه كان آمون يزور ذلك الموقع حيث معبد الأقصر ليجدد ذكرى ولادته أو ذكرى الخلق الإلهي الأول له ولأسلافه الآلهة الأوائل وفقًا لمذهب مدينة طيبة، وكذلك لتجديد قوى «الكا» الإلهية التي تمثل الجزء الذي لا يفنى من الإله أو الملك سواءًا بسواء، ويحتفل بذلك من خلال عيد الأوبت Hb n ipt أي «عيد (زيارة) الحرم» الثاني أو الجنوبي بعد الحرم الأول أو الشمالي، ألا وهو معبد الكرنك. لعل ذلك ما دعى الملك أمنحوتب الثالث باعلان ولادته المقدسة في نفس ذات الموقع الذي خُلق فيه ربه وأبيه حتى يضفي على ولادته القداسة من جانب، ولكي يتشبه في ولادته تلك بخلق أبيه الإله آمون «ملك الآلهة»، وبالتالي ينال قداسة يحتاج إليها في تقوية ملكيته.

ونظرًا لتلك الأهمية الدينية لمعبد الأقصر المرتبطة بمناسبة محددة، فقد ساهم عدد قليل من الملوك في بناء ذلك المعبد، خاصة مع وقوع أحداث صراع ديني وسياسي بعد تولي أمنحوتب الرابع الحكم في طيبة وانصرافه إلى معبوده آتون. وقد انتهى الأمر إلى توقف الإنشاءات إلى أن اعترفت تلك المدينة بالملك توت عنخ آمون، فعاد البناء زمنه وزمن حورمحب، ومن بعدهما ساهم الملك المحب للبناء رمسيس الثاني في اكماله

والزيادة فيه. ولا يمكن مقارنة هؤلاء عدد الملوك بعدد من ساهم في بناء معبد الكرنك الذي هو المعبد الرئيس الدائم لآمون.

إلى جانب ذلك توصلت الدراسة إلى أن معبد الأقصر يمثل في ذاته تجسيدًا معماريًا لأسطورة الخلق رمزيًا. فمن الملاحظ أن أرضية المعبد في بدايتها نجدها مستوية في فناء رمسيس الثاني، وفي جزئها المعماري الأخير متصاعدة تدريجيًا بدءًا من فناء أمنحوتب الأول في اتجاه الجنوب، وكأنها تمثيل لأرض مصر المستوية شمالًا حيث الدلتا ومنحدرة بداية من الصعيد حتى جنوب مصر. ويؤيد ذلك وجود ممر الأساطين العظيم على جانبيه تصوير مراكب موكب عيد الأوبت ومحاط بتلك الأساطين البردية الشكل، وكأنه يجسد مجرى نهر النيل الضيق وعلى ضفتيه نباتات البردي، ونظرًا لأن مهمة الممر هي الربط بين الفنائين مثلما مهمة نهر النيل هي الربط بين الدلتا والصعيد. ويؤكد ذلك أيضًا أن محور معبد الأقصر يتجه من الشمال إلى الجنوب بعكس حتى معبد الكرنك المرتبط به.

ومن ناحية أخرى، فهذا الإنحدار في أرضية معبد الأقصر يستمر حتى يصل إلى ذروته عند قدس أقداس المعبد، وكأنه تجسيد لقمة التل الأزلي الصاعد حيث الإله عندما استوى على قمته بعد خلقه الأزلي، وحيث يراقب ويمنح الخيرات للمصريين منه.

المجلة التاريخية المصرية ٥٣ (٢٠١٩) ٦٧ــ٩٩

عوامل ازدهار الأسواق في مكة المكرمة

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

إبراهيم جلال أحمد*

ملخص

زخرت مكة المكرمة بالكثير من الأسواق التي عدّت من المعالم الحضارية الرئيسة في أم القرى، وأسهمت بفاعلية في مسيرة تاريخ البلد الأمين وحضارته. وفي هذه الدراسة يحاول الباحث تسليط الضوء على عوامل ازدهار الأسواق في البلد الحرام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. والتي تجلت في العوامل الدينية، من خلال البركة الإلهية التي أنعم بها المولى عز وجل على أم القرى، وموسم الحج والعمرة. والعوامل الجغرافية المتمثلة في طبيعة المناخ في فصل الشتاء، وتوافر المياه في بعض مناطق البلد الحرام، وقرب المناطق التي تشتهر بوجود المزروعات منها، واشتهار بكة بكونها من أهم المراكز التجارية على طريق القوافل وبعض الممالك والبلدان. والعوامل الخدمية التي ظهرت بصورة بارزة في كثرة الأسواق وملحقاتها وتنوع منتجاتها، ووجود الهيكل التنظيمي والإداري المميز والفاعل، وتنوع أساليب البيع والشراء، وتوفر العملات المختلفة،

* قسم التاريخ – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة أم القرى.

والموازين والمكاييل والمقاييس. والعوامل الاقتصادية، كتنوع الأنشطة الاقتصادية، والرعاية التي خولتها الدولة العثمانية لأسواق مكة المكرمة، وجودة السلع وتنوعها وكثرتها، وانخفاض أسعارها، والمساعدات العثمانية لمكة المكرمة، وافتتاح مشروع قناة السويس وأثره الإيجابي على أسواق مكة المكرمة. والعوامل الاجتماعية من خلال احتضان أم القرى لكل من أتى إليها من كل فج عميق، فوجد هؤلاء في أسواقها الخير الوفير، وظهرت أسواق لكافة العناصر الوافدة التي عاشت بمكة المكرمة، وكانت هذه الأسواق من مصادر أرزاقهم. والعوامل المرتبطة بالرعاية الصحية والرقابة الشديدة على الصحة العامة بالأسواق. والعوامل الأمنية، من خلال استتباب الأمن واستقرار الأمور في البلد الأمين.

The Markets prosperity Factors in Makkah since the twelfth century to the thirteenth century AH /the eighteenth and the nineteenth centuries AD

Abstract

Makkah is rich in many markets, which are considered one of the most important civilizational landmarks in Umm Al-Qura, and contributed effectively to the march of the country's honest history and civilization. In this study, the researcher attempts to highlight the Markets prosperity Factors in Makkah during the twelfth century to the thirteenth century AH /the eighteenth and the nineteenth centuries AD. The factors of alienation were evident in religious factors, through the divine blessing blessed by the Almighty on Makkah , in addition to the Hajj and Umrah season. It also highlights geographical factors such as the nature of the climate in winter, the availability of water in some areas of Umm Al-Qura, and the proximity of areas that are famous for the presence of various crops from Makkah, and Umm Al-Qura is known to be one of the most important

commercial centers on the caravan route and some kingdoms and countries. There are service factors such as the abundance of markets and accessories and the diversity of their products, and the existence of an organizational structure and administrative distinctive and effective, and the diversity of methods of buying and selling, and the availability of different currencies, scales, measures and measures. The economic factors that contributed to the prosperity of the markets are evident in the diversity of economic activities, the care that the Ottoman State granted to the markets of Makkah in particular and its people in general, and the quality and diversity of goods and their abundance and low prices in many timesو Ottoman assistance to Makkah, the opening of the Suez Canal project and its positive impact on the markets of Makkh. Social factors also contributed to the prosperity of the markets through the embrace of the honest country of all who came to them, and found in their markets abundant goodness, there appeared markets for all the expatriate elements that lived in Makkah, and these markets were sources of their livelihood, whether through sale and purchase or other activities in the markets. Attention to health care and tight control of markets with regard to public health were among the main reasons for its prosperity. Add to this the importance of the security factor, as the security and stability in the no-man's land contributed to the prosperity of markets.

أولى ديننا الحنيف العمل أهمية كبيرة، وحث على طلب الرزق، وكانت أسواق مكة المكرمة ــ وسوف تظل إلى يوم الدين وبخاصة في موسم الحج ــ الملتقى البشري الذي يعكس صورة الأمة الواحدة الجامعة للخليط البشري(١)، الذي يأتي من كل فج عميق ليشهد منافع له في أطهر بقاع الأرض.

وقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى ازدهار هذه الأسواق ، يمكن إبرازها على النحو التالي:

أولاً: العوامل الدينية

تتجلى في البركة الإلهية التي استجابت دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه بقوله ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾(٢)، وتتضح في قول سكانها «لا أحد يعوزه خبز يومه هنا ولا أحد يخشى الأعداء»(٣) مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(٤)، وتبرز أهمية الحج في ازدهار أسواق في أم القرى في قول أهلها «لا نزرع قمحًا ولا دخنًا، الحجاج هم محاصيلنا»، و«الحج هو خبز الحجاز»(٥)، يضاف إلى ذلك أن بكة كانت – وسوف

---

(١) حيدر حب الله: مكة المكرمة عاصمة الوحدة الإسلامية، في مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، بحوث ودراسات، الندوة الإسلامية الكبرى لحج عام ١٤٢٤هـ ٣: ٤٤.

(٢) البقرة: آية ١٢٦.

(٣) فاطمة بنت عبد الله بن علي الشهري: الحياة العلمية في مكة المكرمة ١٢٥٦– ١٣٣٤هـ/ ١٨٤٠– ١٩١٦، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٣٦؛ بوركهارت (جون لويس): رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة: عبد العزيز الهلابي، عبد الرحمن آل الشيخ، بيروت– مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ١٨٧.

(٤) قريش: الآية ٤.

(٥) بيرسون (مايكل): الحج إلى مكة المكرمة من شبه القارة الهندية ١٥٠٠– ١٨٠٠، نقله إلى العربية: معراج نواب مرزا، بدر الدين يوسف محمد، مراجعة وتعليق: معراج نواب مرزا، مركز تاريخ مكة والمدينة المنورة، ١٤٣١هـ ٢٧١، ٢٩٢، ٢٧٤؛ كارستين، نيبور: رحلة عبر البلاد العربية والأخرى في الشرق، إدينبرج ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م، ٢: ٢٧٣.

تظل بمشيئة الرزاق الوهاب - أعظم سوق تجاري في العالم خلال موسم الحج[١] الذي يستمر من بداية شهر رمضان حتى نهاية شهر ذي الحجة[٢]، ويحرص فيه الحجاج وغيرهم من الوافدين إلى أم القرى على شراء الهدايا لذويهم تذكارًا وتبركًا[٣]، ومما يدعم حركة الأسواق ونشاطها وبخاصة خلال هذا الموسم، تعدد الأنشطة التجارية والتسويقية، وفرص العمل، وازدهار بعض المهن، وانتشار الحرف والصناعات البسيطة[٤]. ومما يؤكد أهمية موسم الحج والعمرة أيضًا، أن الحجاج كانوا يتحرون أماكن الأسواق التي تتوافر فيها حاجتهم من السلع، يبيعون ويشترون[٥].

ثانيًا: العوامل الجغرافية

عدّت مكة المكرمة في أشهر الشتاء من ألطف مشاتي الجزيرة العربية؛ لأن الطقس الحار الجاف يتبدل، وتهب الرياح، وتهطل الأمطار الشتوية، ويتحول الطريق بينها وبين جدة[٦]

---

(١) رالي(أغسطس): رحالة أوروبيون في الحجاز، ترجمة: بطرس رزق الله، مراجعة وتقديم: ماجد شبر، طبعة منقحة ومفهرسة، بيروت- دار الوراق للنشر، د.ت، ٢٦.

(٢) الفهد، فهد أحمد حمين: العلاقات السعودية الإندونيسية في عهد الملك عبد العزيز ١٣٤٣-١٣٧٣هـ/ ١٩٣٢-١٩٥٣م دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والحضارة، كلية العلوم الاجتماعية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ٢٣٢.

(٣) أرسلان(شكيب): الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، القاهرة - مطبعة المنار ١٣٥٠هـ، ١٦.

(٤) سمير حمدي عبد الله الحسن: الشريف عون الرفيق وعلاقته بالدولة العثمانية وولاتها في الحجاز (١٢٩٩-١٣٢٣هـ/ ١٨٨٨-١٩٠٥م) دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، ١٦٨.

(٥) سامح إبراهيم عبد العزيز: الظواهر الطبيعية والآثار العمرانية في مكة المكرمة من خلال كتابات الرحالة المغاربة في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، مكة المُكرمة، كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود لدراسات تاريخ مكة المُكرمة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ٢٢١.

(٦) جدة: تظهر أهميتها في كونها أقرب المدن الساحلية إلى أم القرى، وتبعد عنها بنحو ٦٤ كيلو متر من جهة الغرب، وتعد الميناء الفعلي للبلد الحرام. الأنصاري، عبد القدوس، موسوعة تاريخ جدة، جدة- مطابع الروضة ١٤٠٢هـ، ٣١.

ذات الطبيعة الصحراوية إلى طريق مخضر يانع[١] ويؤدي ذلك إلى انتعاش حركة البيع والشراء بالأسواق على عكس الأوقات التي تكون بها الحرارة شديدة. وساعد توافر المياه في بعض مناطق أم القرى كسوق المسعى على زيادة نشاط الأسواق والإقبال عليها للشراء وملء قربهم[٢]، ونتيجة لغلبة الكثبان الرملية في البلدة المقدسة[٣]، اعتمدت الزراعة على مياه الآبار والعيون في الأودية المحيطة بها[٤]، وأهمها: فاطمة، ونعمان، والزَّيْم[٥]، وكَبْكَب، ولاحِج، ويأجَجُ، وملكان، وظهرت بعض البساتين، ومن أشهرها بستان الشريف عون[٦]، إضافة إلى وجود نباتات وفاكهة كانت ترسل إلى أسواق البلد الحرام، وكانت معظم الحدائق والبساتين باتجاه الطائف[٧]، وكانت

---

(١) عبد الرازق محمد حمزة: العيش في مكة المكرمة، جدة- مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ٧٥.

(٢) بوركهارت: رحلات، ١١٤،١١٣.

(٣) تاميزييه (موريس): رحلة إلى بلاد العرب (الحجاز)، ترجمه وعلق عليه: محمد بن عبد الله آل زلفة، الرياض- دار بلاد العرب للنشر والتوزيع ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م،٢٠٢،٢٠١.

(٤) أم القرى، ع ٣٠٤، ١١ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ/ ٣ أكتوبر ١٩٣٠م.

(٥) أحمد حسين: مشاهداتي في جزيرة العرب، القاهرة - مطبعة مصر ١٩٥٠م، ١٥٦؛ عبد الله بن ناصر السدحان: الترويح في المجتمع السعودي في عهد الملك عبد العزيز، دارة الملك عبد العزيز، رقم ٢١٣، ١٤٢٨م، ٨٢.

(٦) الشريف عون الرفيق: تولى شرافة مكة المكرمة في ١٨-١٢- ١٢٩٩هـ/ ٣١-١٠-١٨٨٢م، ودارت حوله روايات كثيرة متناقضة، واستمر في الشرافة لمدة طويلة، وتوفي في سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩١٥م؛ عارف عبد الغني: تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨ هـ -١٣٤٤هـ، بيروت - دار البشائر ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ٨٣٩، ٨٤٠.

(٧) جون فراير كين: ستة أشهر في الحجاز رحلتان إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في عام ١٨٧٧-١٨٧٨م، ترجمة إنعام إيبش، رواد المشرق العربي، أبو ظبي- هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ١٠١- ١٠٣؛ العربي الدائز الفرياطي: الإمام الحافظ عبد الله بن سالم البصري شيخ المحدثين بالحرمين الشريفين (١٠٤٩-١١٣٤هـ) دراسة شاملة لحياته وآثاره، جامعة لإنجازاته، مع تحريرات مهمة لا يستغني عنها، المغرب- منشورات آفاق مغربية للنشر، مدينة أبي الجعد ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ٦٩، ٧٠.

بكة مركزًا تجاريًا يقع على طريق القوافل بين دول الجنوب وممالك الشمال(١) والقاصدة الشام أو اليمن(٢) والخليج العربي، والعراق، والحبشة (٣)، وقربها من عدة منافذ بحرية وموانئ مكنتها من الاتصال بعدة أقاليم لها مقوماتها الصناعية والزراعية(٤)، و من ثم ازدهار حركات الأسواق بها. ومنها ميناء جدة(٥) الذي كانت تعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا(٦)، والشعيبة(٧)، وينبع، والطائف(٨).

الطائف: تقع شرق مكة المكرمة مع ميل يسير إلى الجنوب على ٩٩ كيلاً، وترتفع عن سطح البحر ١٦٣٠ مترًا، ولذا فإن جوها معتدل صيفًا وغير قارس شتاءًا، وتعد مصيفًا مثاليًا للمصطافين من المملكة العربية السعودية، وبعض دول الخليج العربي، وتتميز بكثرة المزارع والفواكه. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ١-١٠، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، دار الريان للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٣١هـ/ ٢٠١١ م،١٠٥٢، ١٠٥٣.

(١) محمد محمود السرياني: مكة المكرمة دراسة في تطور النمو الحضري، مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية، ع ٨٧، جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ/ مارس ١٩٨٦م، ١٢، ١٣.

(٢) هند بنت عبد العزيز محمد الضيف: أسواق الحجاز في العصر المملوكي ٦٦٧- ٩٢٣هـ/ ١٢٦٨- ١٥١٧هـ دراسة تاريخية حضارية، ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإنسانية، قسم التاريخ، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م، ٢٨، ٣٥.

(٣) أشواق بنت حمزة محي الدين مليباري: الأسواق في مدينة مكة المكرمة دراسة في النشأة والتطور والتوزيع، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة أم القرى، ١٤٣٠هـ، ٣٧.

(٤) أشواق مليباري: الأسواق، ١٢٣، ١٢٤.

(٥) فريال عبد المجيد الشريف: مكة المكرمة كما جاءت في كتب الرحالة المُسلمين منذ القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة ماجستير، الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٠- ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠-١٩٨١م، ٩٩.

(٦) بيرسون: الحج، ٢٦٩.

(٧) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وكان مرفأ مكة المكرمة ومرسى سفنها قبل جدة. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٩٢٨.

(٨) ينبع: وتعني ينبع البحر تمييزًا لها عن ينبع النخل، مدينة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر هي ميناء المدينة المنورة، تقع شمال جدة بحوالي ٣٥٤ كيلو، وعن المدينة ٢٥٠ كيلو غربًا عن طريق بدر. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٣٩، ٤٠. فريال الشريف: مكة، ٩٩.

ثالثًا: العوامل الخدمية

تمثلت في كثرة الأسواق وتنوعها مابين دائمة[١]؛ تمارس أنشطتها طوال العام[٢]، وسنوية[٣]، ارتبطت بموسم الحج[٤]، وموسمية، تعقد في أيام ومواسم محدودة، ومشروعاتها صغيرة جدًا ومتقاربة الحجم، وفي أماكن تواجد الحجاج بصفة خاصة[٥]، وتجلت في أسواق الجاليات الإسلامية.وهناك الأسواق المتخصصة[٦] وأغلبها حول الحرم الشريف، واحتوت على الرقيق، والمأكولات، واللحوم، والتمور، والسمن، والعسل، والحليب، والجبن، والخبز، والفواكه، والخضروات، والأعشاب الطبية، ومخطوطات من القرآن الكريم، والعطور، والمسابح، والطرابيش، والخردوات،

---

(١) من أهم الأسواق الدائمة: الشامية (السوق الشامي)، والمعلاة، والمسعى، والليل، وسويقة، والصغير (الحزورة- باب إبراهيم)، والقشاشية، والبادية (البدو)، والجودرية، وباب السلام، وجرول. انظر، العواد، شروق بنت عبد الله بنت محمد: الأسواق التجارية في مكة من بداية الحُكم العثماني حتى نهاية القرن الحادي عاشر (٩٢٣-١١٠٠هـ/ ١٥١٧- ١٦٨٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م؛ مليباري، أشواق، الأسواق.

(٢) أريج مسحل محمد القثامي: مكة المُكرمة في العهد العثماني (١٢٧٧-١٣٣٤هـ/ ١٨٦١-١٩١٦م) دراسة تاريخية حضارية، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) من أهم الأسواق الموسمية: عرفات ومنى، والمدّعى، والغزة. أنظر، العواد، شروق، الأسواق؛ مليباري، أشواق، الأسواق.

(٤) شروق العواد: الأسواق، ١٧.

(٥) جيهان بنت عبد الرحمن شاه بهاي: دور مكة المكرمة في الحياة الاقتصادية، ١٧٨، ١٧٩؛ محمد بن سعدو الجرف، أحمد فريد مصطفى: الأهمية الاقتصادية للأسواق الموسمية بمكة المكرمة لموسم حج عام ١٤٢٣هـ دراسة مقدمة إلى معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بجامعة أُم القرى، ١٤٢٣هـ ٦.

(٦) من أهم الأسواق المتخصصة: أسواق الرقيق، والعطور والعطارين، والغنم والماشية، والطيور، والفاكهة والخضروات، وحارة الشبيكة وباب عُمر، والصيارفة، والحبابة، والتمور، والحدادين، والبزازين، والجزارين والصناعات الجلدية، والحطب والفحم، والخياطة والبقالين، والقرب والصوف، والزل والشمال والمشالح والمفروشات (الجلايل- والشروق)، والصاغة والأحجار الكريمة. العواد، شروق، الأسواق؛ مليباري، أشواق، الأسواق..

والعمائم، والأواني النحاسية، والأقمشة والملابس، والسيوف، والساعات، ومكاتب الصرافة، وغيرها(١)، ووجدت أيضًا الخانات(٢)، ومنها: المفتي بالمسعى(٣)، والسداري عند مخرج المروة، وشارع اليوسفي، والبخارية(٤)، كما انتشرت دكاكين(٥) (محلات) الجواهر، والألماس، والياقوت، والزمرد، والفيروز، والعقيق اليمني، وكافة أنواع المجوهرات الثمينة، والصمغ الجبلي، وزبرجد عين الحسود،

---

(١) روش، اثنتان وثلاثون، مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، نقلها للعربية: محمد خير محمود البقاعي، ط١، بيروت - جداول للنشر ٢٠١١م، ١٢٢، ١٢٣؛ بوركهارت: رحلات، ١١٢- ١١٩.

(٢) الخانات: تعني «الأبنية المخصصة لإقامة المسافرين، وقوافل التجار، والمقر المؤقت للتجار الأجانب وتجاراتهم، وتعني النزل، وهي كلمة أعجمية تعني الفندق في عصرنا الحديث، وهي تعني الحانوت، والدكان، والمخدع، والدار أو المنزل أو البيت، وفي اللغة التركية تعني دار العمل والتجارة. غندر، إبراهيم صبحي السيد، خانات الطرق في القرن التاسع عشر دراسة اثارية حضارية في ضوء نموذجين بجبل سنهور بصحراء بني سويف، دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر السابع عشر، للاتحاد العام الآثاريين العرب، الندوة العلمية السادسة عشر عقدت في الفترة من ١-٣ نوفمبر ٢٠١٤، القاهرة، مقر الاتحاد بالشيخ زايد، ٢٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ١؛ محمود عامر: «المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية»، مجلة دراسات تاريخية، ع ١١٧، ١١٨، كانون الثاني (حزيران) لعام ٢٠١٢م، ٣٧٢؛ حسان حلاق، عباس صباغ: المعجم الجامع في المُصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، بيروت- دار العلم للملايين أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩م، ٨٠.

(٣) أم القرى، ع ١٦٧، ٣ رمضان ١٣٤٦هـ/ ٢٤ فبراير ١٩٢٨م.

(٤) عبد العزيز رادين: حارة سوق الليل، مكة المكرمة منبع العلم والحضارة أهلها- حاراتها- أسواقها، القاهر- زهراء الشرق ٢٠٠٦م، ١٤٤، ١٤٥؛ محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكة المكرمة - مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ٥: ١١١، ١٤٥.

(٥) الدكاكين: جمع دكان، معربة عن الفارسية، وهناك من رجح أنها يونانية وتشبه آنذاك المصطبة التي يتم الجلوس عليها. المطبعة الكاثوليكية (إشراف)، المنجد في الأعلام، ط٢٦، بيروت، د.ت، ٢٢٠؛ الفيروز آبادي: معجم القاموس المحيط مرتب ترتيبًا ألفبائيًا وفق أوائل الحروف، رتبه ووثقه: شيحا، خليل مأمون، ط٤، لبنان، بيروت - دار المعرفة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ٤٤١؛ السيد آدّي شير: كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة - دار العرب للبستاني ١٩٨٧، ١٩٨٨م، ٥٦.

وعين السمك[١]. ووجدت الحوانيت في «منى» في موسم الحج على وجه الخصوص[٢]، وباب السلام[٣]، والقشاشية[٤]، واالشامية[٥]، وبالمسعى التي تميزت بكثرة حوانيتها[٦]، وظهرت الوكالات[٧] بكثرة، ومن أشهرها وكالات: الشام، والهند، واليمن، والحبشة، ومصر[٨]، كما وجدت قيساريات[٩] شبيهة بالموجودة آنذاك بدمشق[١٠]، والقاهرة، وممراتها ضيقة لا تدخلها السيارات ولا العربات[١١]، وظهرت

---

(١) محمد علي بيومي فهيم: ملامح النشاط الاجتماعي في مكة المُكرمة، القاهرة ٢٠٠٩م، ٧٥.

(٢) سامح عبد العزيز: الظواهر الطبيعية، ٢٢٦.

(٣) أيوب صبري: (صنفها باللغة التركية العثمانية)، موسوعة مرآة الحرمين وجزيرة العرب، أشرف على ترجمتها: محمد حرب، ترجمها إلى العربية: ماجدة مخلوف وآخران، القاهرة - دار الآفاق العربية١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ٢: ٥٤٢، ٥٤٣.

(٤) الشريف مسعود محمد آل زيد: تاريخ مكة المُكرمة ١٠٤١-١٢٩٩هـ/ ١٦٣١-١٨٨١م، ط١، القاهرة - دار القاهرة ٢٠٠٥م، ١٦٧.

(٥) ضيف الله بن يحي الزهراني، غباشي عادل محمد نور: تاريخ مكة المكرمة التجاري، بمناسبة احتفال الغرفة بمرور خمسين عامًا على تأسيسها مكة المكرمة، ط١، الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة، اللجنة العليا المنظمة للاحتفال ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ٥١.

(٦) سامح عبد العزيز: الظواهر الطبيعية، ٢٢٤، ٢٢٥.

(٧) الوكالة: الفندق أو الخان المعد لنزل التجار وبضائعهم، وقد تشتمل على سوق مسقوف كالقيسارية. مصطفي عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/ ١٩٦٩م، ٤٤٣.

(٨) محمد علي فهيم: ملامح، ٨٠، ٨١.

(٥) القيسارية: «وتكتب في بعض المصادر قاسارية أو قيسرية وهي الخان الكبير الذي يشغله التجار وقد يشتمل على سوق مسقوفة». مصطفى الخطيب: معجم، ٣٥٧.

(١٠) آرثر جون وافل (الحاج علي الزنجباري)، رحلة الحاج المُعاصر إلى مكة عام ١٩٠٨م، ترجمة: ريم بو زين الدين، مراجعة وتحرير: أحمد إيبش، رواد المشرق العربي، أبو ظبي - هيئة أبو ظبي للثقافة والتُراث (المجمع الثقافي)، دار الكتب الوطنية ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ١٥٧.

(١١) مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري، الكتاب العربي السعودي (٥٥)، جدة - دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٧٢.

الرباع[١]، ومن أشهرها: الفرن، وباب السلام، ومغازل، والحريرية، والصيارفة، والدشيشة[٢]، ووجدت الأزقة[٣] من ومن أشهرها الزقاق الصيني، وكان يوجد بين المُدّعى والمعلاة من ناحية، والغزة والقشاشية من ناحية أخرى، وبه صاغة الذهب والفضة[٤]، والوزير، وكانت تباع به المواد الغذائية: كالحبوب، والأرز، والدقيق، والزيت. والطواحين[٥]، والبيض جهة المسعى[٦]، والقلعة[٧]، والرواسة، وكانت تباع به اللحم البقري والضاني والجملي، والرؤوس والسقط -القلوب والكرش[٨]، وظهرت القاعات[٩]، ومن أشهرها: «قاعة الشفا» بحارة الشامية، وسميت بذلك لتخصصها في تجارة الأدوية والأعشاب الطبية، ولوجود أكثر الأطباء والحكماء فيها، خاصة في أيام الحج[١٠]، وظهرت مظلات الباعة الذين كانوا

---

(١) الرباع: عبارة عن مساكن مبنية فوق حوانيت ودكاكين ووسائل للتجارة، وتتكون من أربعة أو خمسة أدوار بسلم وفناء واحد، واحتوي الدور على الكثير من الحجرات، والمسكن فيه صغير وبه منافعه. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت - دار الفكر ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ٨١؛ مكة، الرباع بناء معماري تميزت به مكة في العصر المملوكي، الخميس ٢٣ ربيع الثاني ١٤٣٦هـ- ١٢ فبراير ٢٠١٥م، ٢٨ ربيع الأول ١٤٤١هـ - ٢٨ نوفمبر ٢٠١٩م.

(٢) مكة، الرباع.

(٣) أزقة (الزقان): جمع زقاق تذكر وتؤنث وتعني السكة أو الطريق الضيق. المنجد في الأعلام، ٣٠١.

(٤) بوركهارت، رحلات، ١٢٠؛ رالي، رحلة، ٨٥.

(٥) عبد العزيز رادين، حارة سوق الليل، ١٤٤، ١٤٥.

(٦) محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم، ٦: ١١١.

(٧) أم القرى، ع ١٤٤٨، ٧/ ٥/ ١٣٧٢هـ -٢٠/ ١/ ١٩٥٣م)، ٣؛ قريش، ع ٨٩ الثلاثاء ٢٦/ ٢/ ١٣٨١هـ= ٧/ ٨/ ١٩٦١م)، ١٠.

(٨) عبد الله محمد أبكر: صور من تراث مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق، ج ١، مؤسسة علوم القرآن، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع ٢٠٠٤م، ٢٤٨.

(٩) القاعات: جمع قاعة، لفظ دخيل على اللغة العربية، ويعني مكان فسيح يتسع لعدد كبير من الناس. مصطفى الخطيب: معجم، ٣٤٥.

(١٠) جهان بنت إبراهيم شار علي عبد الرحيم: الحرف التقليدية في مكة المكرمة في العهد السعودي ١٣٤٣-١٤٢٦هـ/ ١٩٢٤-٢٠٠٥م، إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ مكة=

يقفون تحت المظلات الكبيرة[١].

وأسهم الهيكل الإداري والتنظيمي الفاعل بأم القرى في ازدهار الأسواق ، وأتى على رأسه، شريف مكة المكرمة، الذي قام بتحديد أسعار السلع[٢]. وتعيين المحتسب، وشيوخ طوائف الحرف[٣]، وتحديد الرسوم التي تفرض على الأسواق والأنشطة التي تمارس بداخلها، ومن له حق ممارستها[٤] وإصدار أوامره بتنظيم الأسواق، وإعلان النقود المستعملة في الأسواق، وإبطال استعمالها، ومنع تداولها، وفرض العقوبات المختلفة على المخالفين في الأسواق وعمليات البيع والشراء. وهناك والي جدة الذي تدخل بصورة بسيطة وأوقات قليلة فيما يتعلق بشؤون الأسواق، ولذا تدخل في تنظيم عملية البيع والشراء في الأسواق، ويرز دور القاضي في تطبيق نظام جديد على عملية البيع والشراء، أو تنظيم منطقة السوق، وشارك شيخ الحرم في بعض الأمور المتعلقة بتنظيم الأسواق، وعدّ ناظر الأسواق بمثابة نائب الشريف في الأسواق ومنفذ أوامره بها، ومبلغه بكل كبيرة وصغيرة تحدث بها، وبخاصة المشاكل حتى يتم حلها بسرعة، وتحديد أنواع السلع التي تكال وتوزن، وفي بعض الأوقات تحديد الأسعار[٥]، أما

=المُكرمة، مكة المكرمة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥ م، ١٧٨؛ إيمان بنت إبراهيم كيفي: الحياة الاجتماعية بمكة المكرمة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود (١٣٤٣-١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤-١٩٥٣م) اصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ مكة المُكرمة، مكة المُكرمة، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م، ٤٠٣.

(١) ابن الأحرش، سعيد: مكة المكرمة وفقًا لتقرير رحلتين إسبانيتين في القرن التاسع عشر، بحث مقدم إلى ندوة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ، ٣٨١.

(٢) محمد حميدان العويضي الحربي: نظم الحكم والإدارة في مكة في العهد العثماني الأول ٩٢٣ - ١٢١٧هـ/ ١٥١٧ - ١٨٠٢م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦ - ١٩٨٧م، ١٢٥، ١٢٦.

(٣) الحسني: الشريف عون ٢٢، ٢٣؛ محمد على فهيم: ملامح،٧٧؛ أحمد السباعي: تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، المملكة العربية السعودية، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٢: ٤٤٨.

(٤) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ٤٠.

(٥) محمد الحربي: نظم الحكم، ١٢٥، ١٢٦، ١٧٦، ١٩١، ١٩٦، ٢٣١.

المحتسب فمن مهامه المحافظة على النظام العام في الأسواق(١) والإشراف عليها، وعلى طوائف الحرف، والمعاملات التجارية(٢)، ومراقبة الدلالين، والأسعار، والمقاييس، وحركة البيع والشراء، وتحديد المبالغ التي تحصل كضرائب(٣)، وقام شيخ التجار بتسوية أمور التجار وإصلاح شؤونهم(٤). أما المجالس الإدارية التي حصلت مكة المكرمة على حصتها فيها عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٩م فكان من أهم مهامها، النظر في بناء الأسواق(٥). أما الهيكل التنظيمي الجيد، فتكون من الدلال، وهو الوسيط بين البائع والمشتري(٦)، وكان ينادي على البضائع؛ لتعريف المشترين بها وبثمنها، كما كان الوزان من عناصر الهيكل الإداري(٧)، والكيال؛ ليكيل الحبوب بالمكاييل؛ لإتمام عملية البيع والشراء(٨)، والسماسرة معظمهم من الهنود(٩) والصرافون الذين اختصوا بتبديل العملات، وكان لهم سوق مخصص بأجياد(١٠)، والحمال (العربجي)، وهو

---

(١) شروق العواد: الأسواق: ١٣٩.

(٢) الحسني: الشريف عون، ٢٣.

(٣) محمد الحربي: نظم الحكم، ٢٣١.

(٤) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ٣٠٢.

(٥) حميدة بنت عبد الله المصعبي: السالنامة كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز خلال فترة الحكم العثماني (دراسة تحليلية لسالنامة سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جدة، محرم ١٤٣٥هـ/ نوفمبر ٢٠١٣م، ٨٨، ٨٩؛ عماد عبد العزيز يوسف، الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦-١٩١٨م، ط١، العراق- شركة الوراق للنشر والتوزيع ٢٠١١م، ٧٥.

(٦) إيمان كيفي: الحياة الاجتماعية، ٣٨٧، ٣٨٨.

(٧) آل زيد: تاريخ مكة المُكرمة، ١٨٧، ١٨٨.

(٨) منال مقبل محمد القرشي: المكاييل والموازين والمقاييس في ولاية الحجاز في العهد العثماني ٩٢٣-١٣٣٤هـ/ ١٥١٧-١٩١٦م دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ٧١.

(٩) بوركهارت: رحلات، ١٧٧؛ روش: اثنتان ثلاثون، ١٢٢.

(١٠) شروق العواد: الأسواق، ١٥٥.

(الشيّال) الذي يحمل الأمتعة إلى البيوت بمختلف أنواعها[١]، والمتخصصون في نقش الأختام لغير القادرين على الكتابة[٢] وحامل الختم الذي يقوم بتوثيق الموازين والمعايير[٣].

وساعد أيضًا على ازدهار الأسواق، تنوع أساليب البيع والشراء، والتي ظهرت كالمقايضة (المبادلة أو المعاوضة)[٤]، والأسلوب النقدي[٥]، وأسلوب الصيارفة والقروض[٦]، والبيع بالآجل[٧]، والبيع عن طريق الدلال أو الوسيط، الذي يحصل على عمولة[٨]، والبيع والشراء من خلال السماسرة[٩]، كما تم استخدام المترجمين في أساليب البيع والشراء نتيجة لتعدد اللغات[١٠]، والبيع والشراء من خلال العرف والأخلاقيات المتعارف عليها، فكان البيع والشراء يعتمد على العرض والطلب، والرواج والكساد، والانتعاش والانكماش، مباشرة بين أطراف العلاقة، وكان الالتزام بين أطراف العلاقة بمثابة العرف والقاعدة والمنهاج، وما شاذ عن ذلك كان نادر الحدوث[١١].

---

(١) آل زيد: تاريخ مكة المكرمة، ١٨٨؛ إيمان كيفي: الحياة الاجتماعية، ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) آل زيد: تاريخ مكة المكرمة، ١٨٩.

(٣) محمد الحربي: نظم الحكم، ١٣١.

(٤) حسين القزويني: العملة الإسلامية، ط١، الكويت- شركة الربيعان للنشر والتوزيع ١٩٩٥م، ١١.

(٥) إسحاق محمد رباح: تطور النقود الإسلامية حتى نهاية عهد الخلافة العباسية، المملكة الأردنية الهاشمية، المكتبة الوطنية، عمان - دار كنوز المعرفة، مؤسسة أحمد الكوبري للطباعة ٩/ ٢٠٠٨م، ٢٢.

(٦) إيمان كيفي: الحياة الاجتماعية، ٣٨٥، ٣٨٦.

(٧) عبد الله صالح حبابي: من حارة اليمانية إلى حارة المسفلة، مكة المكرمة منبع العلم والحضارة أهلها- حاراتها- أسواقها، القاهر- زهراء الشرق ٢٠٠٦م، ٢١٣.

(٨) إيمان كيفي: الحياة الاجتماعية، ٣٨٧، ٣٨٨.

(٩) بوركهارت: رحلات، ١٧٧.

(١٠) روش: اثنتان وثلاثون، ١٢٢.

(١١) محمد علي بن منصور أشموني:السويقة جوهرة الأسواق، مكة المكرمة منبع العلم والحضارة أهلها- حاراتها- أسواقها، القاهرة - زهراء الشرق ٢٠٠٦م، ٩٦، ٩٧، ١٠٩.

وساعد كذلك على ازدهار الأسواق، توافر العملات المختلفة في الأسواق، حيث كانت كل أنواع النقود والعملات(١) وكانت مقبولة التعامل في جميع أيام السنة وبالأخص في أوقات الحج(٢)، ونتيجة لذلك أصبحت مكة المكرمة سوقًا دولية للعملات(٣)، كما وجدت الموازين، والمكاييل، والمقاييس(٤) المتعارف عليها في أغلب

---

(١) من العملات التي ظهرت بسوق مكة المكرمة: الدنانير وأجزائها ومنها الثلث والربع(الرباع) والنصف. ومن العملات أيضًا: الدوكات البُندقية (الدوقات- الدوجات- المشخص)، والأشرف، والأحمر، والبنتو، والجنيه، والزنجيرالي، والطُغرالي(طرة)، والشريف المحمدي (أبو طرة)، والليرة، والمحبوب (سلطاني)، والغازية، والقروش الذهبية. أما العُملات الفضية، فمنها: الدراهم، والأقجة (العُثماني)، والقروش الفضية، وأنصاف الفضة، والبارة، والميدي، والدولار، والديواني، والروبية الهندية، والريال، والزلط (الزلوطة)، والكيس، والمحلق (المحلقة- البطالة)، والقمري (هلالي)، والمقصوص، والهللة. وكانت هناك عُملات ذهبية وفضية: مثل: الثمن، والمساعيد، والإسماعيلي. أما العملات النحاسية فمنها: الحرف، ودينار سكة أحمر (نحاس)، والمُحلقة النحاسية. وهناك عملات أخرى. ولكنها لم تنجح في التداول لضعفها ومن ثم انهيارها مثل الطويلة التي ضربتها الدولة السعودية الأولى. عن هذه العملات أنظر: أحمد يوسف: النقود المُتداولة في مكة المكرمة في العصر العثماني حتى نهاية القرن ١٢هـ/ ١٨م، مكة المكرمة، كرسي الملك سلمان، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م. ليلي بنت عبد الكريم الزهراني: جهود الملك عبد العزيز في مواجهة الأزمات الاقتصادية والأوبئة ١٣١٩- ١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢- ١٩٥٣م، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أُم القرى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م، ٤٩.

(٢) الكردي: التاريخ القويم، ٥: ٢٦٣.

(٣) آمال رمضان عبد الحميد صديق: الحياة العلمية في مكة (١١١٥-١٣٣٤هـ/ ١٧٠٢- ١٩١٦م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م، ٨٩.

(٤) من الموازين: الإردب، والأوقية (القية - الوقية، والسنجة (الصنجة)، والأوقة، والربعه، والصاع، والمد، والفراسلة، والبهار، والقيراط، والحبة، والدانق، والبطمان، والقمحة، والقربة. أما المكاييل فمنها: الربعه، والكيلة، والوزنة، والمد، والنصفة، والرطل، والمكوك الحجازي، والجريب، والمكوك الحجازي، والويبة، والمثقال، والغرارة، وألقى الفصل الضوء على الرسوم (الضرائب) التي فرضتها السلطات المختصة على الموازين والمكاييل. أما عن المقاييس التي ظهرت خلال الفترة موضوع الدراسة فمنها: الذراع، والذراع أرشون، والخطوة، والباع، والإصبع، والقبضة، والجرام، والفرسخ، والأندازة أو الهندازة، والشبر. عن هذه الموازين والمقاييس والموازين أنظر. منال القرشي: المكاييل، ٢٠١٧م.

بلدان العالم، مما أسهم في سهولة حركة البيع والشراء ومن ثم ديمومة النشاط في أسواق البلد الأمين.

وللمحافظة علي الصحة العامة في الأسواق، كان يمنع منعًا باتًا بيع الفاكهة النيئة، وخاصة البطيخ والشمام في عرفات ومنى، وكان هذا المنع إلى ما بعد العودة من منى لعدة أيام قلائل، كما تمت المناداة بضرورة نظافة المسعى بين الصفا والمروة، وعدم السماح بوجود الحيوانات هناك، وتأكيد إشراف أطباء البلدية البيطريين على اللحوم، وعدم السماح بذبح الحيوانات المريضة، ومنع بيع الفاكهة المعطوبة والسمك المتعفن والأطعمة الضارة بالصحة في الأسواق، والمنع المطلق لعمل الحلاقين الذين يقومون بالحجامة[١] وفصد الدم[٢] بالقرب من الحرم الشريف[٣]. وهذا يدل على قيام الدولة العثمانية بجهود متعلقة بالرعاية الصحية في مكة المكرمة.

رابعًا: العوامل الاقتصادية

تعد حرفة الرعي من أهم الحرف الموجودة في الحجاز، خاصة أن ثلثي سكانه من القبائل المتنقلة[٤]، وكانوا يستندون إلى ما يملكونه من ثروة حيوانية من أهمها:

---

(١)الحجامة: إخراج الدم من الجلد بشرطه ومصه، بهدف إعادة الدم إلى نصابه الطبيعي ومن ثم تنشيط الدورة الدموية في الدم، والتخلص من الدم الفاسد الذي يحتوي على نسبة كبيرة من الكرات الحمراء الهرمة والميتة والشوائب الدموية الأخرى، وهذه العملية تؤدي إلى إجبار الدم على الاندفاع إلى منطقة مُعينة لتخفيف الألم أو تحسين الحالة، وسرعة الشفاء. و تكون المُداوة والمعالجة بالمحجم أو المحجمة (بكسر الميم) وهي عبارة عن آلة الحجم التي يُجمع فيها الدم وهي مشرط الحجّام وتُشبه الكأس (القارورة) حيث يفرغ من الهواء ويوضع على الجلد فيُحدث تهيجًا ويجذب الدم أو المادة بقوة. المطبعة الكاثوليكية، المنجد في الأعلام، ١٢٠؛ عبد الرحيم ماريديني: الحجامة، دمشق- دار المحبة، بيروت- دار آية ٢٠٠٨، ٢٠٠٩م، ٩؛ ملفي بن حسن الشهري: الحجامة علم وشفاء، دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ٢٠؛ أحمد حلمي صالح: الجامع في علم العلاج بالحجامة، القاهرة- مكتبة مدبولي، ١٤٣٤هـ، ١٣.

(٢) فصد الدم: سال وجرى. المنجد في الأعلام، ٥٨٥.

(٣) يلدز: الحجر، ٨٥، ١٧٩.

(٤)حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة – دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م، ١٥.

الإبل والأغنام؛ باعتبارها مصدر إعاشتهم اليومية من اللبن، والحليب، والسمن، والزبد، واللحوم، والخيول، والحمير[١].أما الحرف والصناعات فرغم اتسامها بالبساطة والتقليدية، لكنها حملت خاصية مكة كصناعة صفائح وعبوات زمزم وبعض المنتجات التي سدت بعض الاحتياجات البسيطة واللازمة للحجاج وموسم الحج[٢].

وظهر جليًا انخفاض أسعار الجواهر (الأحجار الكريمة) عند دخول قوات الإمام سعود أُم القرى، مما أدى ذلك إلى انتعاش حركة السوق والإقبال على هذه الجواهر الثمينة[٣] يضاف إلى ذلك رغبة الحجاج في شراء بعض السلع لتنوع أصنافها وندرتها وعدم توافرها في بلادهم، أو شرائها كذكرى من البلد الحرام[٤]. إضافة إلى «ما لا يحتاجون إليه، متعللين فقط بأنهم وجدوا الأسعار نازلة»[٥]، واتسمت أسعار السلع في البلد الأمين في أواخر العهد العثماني برخصها، وتوفرت المواد الغذائية، فكان «اللحم في مكة المكرمة كثير ورخيص وهو جيد والثمرات الخضر فيها كثيرة أيضًا ورخيصة»[٦].

---

(١) عبد الرحمن بن علي الجريسي: «الاقتصاد السعودي بين الماضي والحاضر مع التركيز على المدة ما بين ١٣١٩ - ١٤١٩هـ»، بحث منشور في «المملكة العربية السعودية في مائة عام بحوث ودراسات»، دارة الملك عبد العزيز، المجلد التاسع، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م، ٢١٢،٢١١.

(٢) بيرسون: الحج، ٢٧٤.

(٣) هاري سانت جون فيلبي: أيام عربية، تعريب: عباس سيد أحمد، مراجعة وتدقيق وتعليق: فهد بن عبد الله السماري، محمد حميدان العويضي، عبد الله المنيف، عبد الرحمن الشُقير، مراجعة، ط١، الرياض - مكتبة العبيكان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ٣٧٠.

(٤) أريج مسحل محمد القثامي: مرجع سابق، ٢٠١، ٢٠٠، ٣٢٨.

(٥) عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج٢، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ(٢٠٠٥م)، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، ٥٤٠.

(٦) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ٧٠؛ يوسف أيبش: (جمع وتحقيق)، رحلات الإمام محمد رشيد رضا، ط٢، بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ١٤٣، ١٤٤.

ونتيجة لتمتع الحجاز بمكانة مميزة من قبل الدولة العثمانية، فقد تمتع سكان الإقليم – وبالطبع مكة المكرمة – بالإعفاء من جميع الضرائب الشخصية والعقارية التي كانت تفرضها على ولاياتها الأخرى(١)، وظهرت الرعاية الكبيرة التي شمل بها العثمانيون أشراف أُم القرى وأسرهم، من خلال الحصول على حاجته من الأموال والمؤن الغذائية بصورة جيدة(٢). وكانت الصرة(٣) ترسل سنويًا مع قافلة الحج المصري، تنفق ما مقداره ١٢٠٠٠ إردبًا من القمح لمكة المكرمة، وترسل مساعدات مالية مع قافلة الحج الشامي(٤) والمساعدات والأموال اللازمة خلال تعرض الولاية للأزمات المالية والمجاعات، إضافة إلى ذلك المساعدات العينية، وكانت مصر ترسل سنويًا للحرمين الشريفين ٢١٠٠٠ أردبًا من القمح، ومبلغًا من المال، وكانت تونس ترسل أموالاً سنوية للحرمين، وظهرت المساعدات الهندية جلية عام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م(٥). ويرجح أن هذه الامتيازات والمساعدات قد أدت بصورة أو بأخرى إلى إيجاد فائض مادي استطاع أهالي الحجاز عامة ومكة المكرمة على وجه الخصوص ممارسة النشاط التجاري في الأسواق بصورة طيبة وبخاصة في مواسم الحج والعمرة.

---

(١) الحسني: الشريف عون، ١٧٢.

(٢) بيرسون: الحج، ٢٧، ٢٧٣.

(٣) الصرة: تعني كيس النقود، ومن الناحية الاصطلاحية الأموال والهدايا التي كان يرسلها السلاطين العثمانيين إلى أهالي الحرمين الشريفين والقدس الشريف مع قوافل الحج كل عام. صابان، سهيل، الصرة المرسلة إلى أهالي مكة المكرمة عام ١٠٧٨ بموجب الدفتر ١٣٢ من دفاتر الصرة في الأرشيف العثماني، بحث مقدم إلى ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية عام ١٤٢٦هـ مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ ٤؛ ابتسام بنت محمد صالحين عبد الرحمن كشميري: مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ٩٦٣- ١٠٠٠هـ/ ١٥١٧-١٥٩١م، رسالة دكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٣.

(٤) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ٥٢.

(٥) الحسني: الشريف عون، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٧.

وكانت الدولة العثمانية ترسل إلي مكة المكرمة الحبوب والثمار كل سنة، مما أدى إلى زيادة النشاط الاقتصادي ومن ثم حركة الأسواق(١)، كما أسهم افتتاح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م، في ازدهار التجارة في البلد الأمين بشكل خاص، لتحول طريق التجارة إلى قناة السويس وتحكمها فيها(٢)، واستفادت الدولة العثمانية من ذلك، وزادت وارداتها، نتيجة تحصيل رسوم مرور السفن، ووصلت البضائع بشكل أسرع إلى مدن الحجاز وأهمها مكة المكرمة مما أسهم بصورة جلية في نشاط الأسواق وازدهارها(٣).

خامسًا: العوامل الاجتماعية

نتيجة لاحتضان مكة المكرمة للعناصر الإسلامية التي أتت من كل فج عميق، وعدم وجود العنصرية فيما يتعلق بالأجناس، الأمر الذي أدي إلى أن تصبح البوتقة التي انصهرت فيها الشعوب الإسلامية من مشارق الأرض ومغاربها، أدى ذلك إلى توفر الفرص الاقتصادية وإقبال الكثير من التجار من الجزيرة العربية(٤)، والجاليات، الهندية(٥)، والمصرية، والعراقية، والشامية(٦)، والحضارمية(٧)،

---

(١) الفرياطي: دراسة، ٦٩، ٧٠.

(٢) الحلواني، سعد بدير، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن التاسع عشر الميلادي، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ١٥٣، ١٥٤.

(٣) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ٤١؛ نبيل عبد الحي رضوان: الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ١٢٨٦هـ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٦٩- ١٩٠٨م، ط١، جدة- مكتبة تهامة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٦٤- ٧١، ٧٣.

(٤) سمير عبد الحميد نوح:الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة آداب الشعوب، رقم ٥، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ٢٥٧، ٢٦٤.

(٥) وافل: رحلة، ١٥٧.

(٦) فهيم: ملامح، ٧٦.

(٧) محمد عمر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، مكة المكرمة - منشورات نادي مكة الثقافي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ١٦١ -١٦٦.

والتكرونية(١)، والجاوية، والمغربية(٢)، والتركية، والأفغانية(٣)، والفارسية(٤)، والأوروبية(٥)، وأدى ذلك إلى المنتجات والبضائع المعروضة في أسواق مكة المكرمة تبعًا للتنوع السكاني(٦)، وكان لهذا التنوع البشري الإسلامي من داخل الجزيرة العربية وخارجها دوره في النشاط الاجتماعي والاقتصادي في مكة المكرمة(٧). إذ أنهم كانوا متأكدين أنهم في سوق استهلاكي مربح(٨)، وكان الكثير من الحجاج يجمعون بين أداء فريضة الحج وبعض التجارة فيجلبون معهم سلعًا يستطيعون بيعها، ويحملون عند عودتهم من أم القرى البن(٩) وعباءات بغدادية وقبعات (طرابيش) فارسية، وسيوفًا وخناجر هندية(١٠)، وقد أدى ضعف الدولة العثمانية، وازدياد الغزو من قبل الاستعمار وبخاصة الانجليزي والفرنسي، والروسي للأقاليم الإسلامية إلى ازدياد حركة الهجرة إلى مكة المكرمة، فظهرت الجاليات المختلفة واستطاعت نقل عاداتها، وتقاليدها، وأخلاقها، وحرفها، وصناعتها، مما أدى إلى تطور الحرف، والصناعات، والمهن وانتعاش نشاط الأسواق وازدهار الحالة الاقتصادية(١١).

---

(١) عمر النقر: تقليد زيارة الأماكن المقدسة في إفريقيا الغربية دراسة تاريخية تعود بنوع خاص إلى القرن التاسع عشر، ترجمة باقادر، أبو بكر أحمد، الرحلات المكية، ط ١، جدة - دار كنوز المعرفة، صفر ١٤٣٢هـ/ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١م، ٤٩، ٥٠.

(٢) رفيع: مكة، ١٦٣ - ١٦٦.

(٣) رالي: رحالة، ٢٧.

(٤) وافل: رحلة، ١٥٧.

(٨) بوركهارت: رحلات، ١٧٥.

(٦) رالي: رحالة، ٢٧.

(٧) رفيع: مكة، ١٦٣ - ١٦٦.

(٨) وافل: رحلة، ١٥٧.

(٩) فالين: جورج أوغست (عبد الولي)، رحلات فالين إلى جزيرة العرب، ط٢، بغداد - دار الوراق للنشر ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ٣٣.

(١٠) رالي: رحالة، ١٣.

(١١) جهان عبد الرحيم: الحرف، ٣٤؛ نزهة يقظان صالح الجابري: مورفولوجية مكة المكرمة=

سادسًا: العوامل الأمنية

إن استقرار الأوضاع الأمنية في البلد الحرام واستتبابها يؤدي بلا شك إلى ازدهار الأسواق وزيادة حركة البيع والشراء، ومما يؤكد استتباب الأمن في مكة المكرمة، تميز موسم حج عام ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م بالأمن والأمان إذ حج الشريف عبد الكريم محمد بن يعلي(١) بالناس على غير العادة في أمن وأمان ولم يحدث شيء من المخالفات كما كان يحدث من قبل(٢)، ونتيجة لاستقرار الأوضاع بعد نهاية الاضطرابات التي قامت بين الشريف غالب بن مساعد(٣)، والإمام سعود(٤)، عادت الأسعار والأرزاق

=الاجتماعية دراسة في تحديد المناطق الاقتصادية الاجتماعية في العاصمة المقدسة، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة أم القرى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ٧٧.

(١) عبد الكريم محمد بن يعلي الشريف: تنازل له الشريف عبد المحسن عن الإمارة في أواخر ربيع الأول ١١١٦هـ/ ١٧٠٢م، وكان على خلاف دائم مع الشريف سعد وابنه الشريف سعيد، وفي جمادي الأول ١١١٧هـ/ ١٧٠٣م، أنعم السلطان العثماني على الشريف عبد الكريم بشرافة مكة المكرمة، وتولى الشرافة ثلاث مرات، وفي ١١٢٣هـ/ ١٧١١م جاءت أخبار بأن السلطنة أمرت بتوجيه شرافة مكة المكرمة للشريف سعيد، ولما تأكد الشريف عبد الكريم بصحة الأمر غادر أم القرى، بعد أن تولى ست سنوات، وتُوفي في مصر بالطاعون سنة ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م. عارف عبد الغني: تاريخ أمراء، ٧٧٢- ٧٧٨.

(٢) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، حققه كوكبة من العُلماء، مكة المكرمة، جامعة أُم القرى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٣: ٤١٦.

(٣) الشريف غالب بن مساعد: كانت مدة إمارته على مكة المُكرمة نحو سبع وعشرين سنة، تولى إمارة مكة المكرمة بعد أن تنازل له عنها أخوه الشريف عبد المعين سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م، وبدأ الصدام بينه وبين القوات السعودية سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م، وامتد الصدام إلى سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، واستطاع الإمام سعود دخول أم القرى، وحينما توجه محمد علي والي مصر إلى جده، قابله الشريف غالب، وبعد وصول محمد علي مكة ساءت العلاقة بينه وبين الشريف غالب، وفي أواخر ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م، قبض على الشريف غالب وأولاده وأرسلوا إلى مصر ثم إلى سلانيك حيث توفي الشريف غالب بها سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م. عارف عبد الغني: تاريخ أمراء، ٨١٩-٨٢١.

(٤) الإمام سعود: سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود: (١١٦٣ - ١٢٢٩هـ/ ١٧٥٠ - ١٨١٤م) إمام، من أمراء نجد، يعرف بسعود الكبير. ولي يوم مقتل أبيه بالدرعية سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، وجند جيشا كبيرا أخضع بن معظم جزيرة العرب، فامتد ملكه من أطراف عمان ونجران واليمن وعسير إلى شواطئ=

إلى ما كانت عليه من قبل، وحدث الاتفاق في ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م بينهما على بعض الأمور التي أعادت الأمن والاستقرار إلى البلد الأمين[١]، وقد طبق الإمام سعود في الحجاز نظام اقتصادي ساعد تحسين الأوضاع الاقتصادية، ومن ثم الأمنية[٢]، وتحقق الأمن في فترة الحكم السعودي للبلد الأمين، وأصبحت الطرق آمنة، والوصول إلى البلد الحرام سهلًا ميسورًا[٣].

وساعد على مزيد من استتباب الأمن دخول حسيب باشا[٤]. والي الحجاز في مفاوضات مع مشايخ ورؤساء القبائل والعشائر الذين كانوا يتحكمون في الطرق، فنجح في استمالة عدد كبير منهم إلى جانبه، والتزام غالبية الباقين، فقدم لهم حسيب باشا عطايا مادية وكساوي، وحينما تولى عثمان نوري باشا[٥] ولاية مكة المكرمة أمن

=الفرات وبادية الشام، ومن الخليج الفارسيّ إلى البحر الأحمر. وكان موفقا يقظا، لم تهزم له راية، موصوفا بالذكاء، على جانب من العلم والأدب، مهيب المنظر، فصيح اللسان، شجاعا، مدبرا. كانت إقامته في الدرعية. وتولى بنفسه كثيرا من المغازي، ودخل في حرب ضد جيوش محمد علي التابعة للدولة العثمانية، واستطاعت هذه الجيوش السيطرة على الحجاز بعد مقاومة شديدة من قبل جيوش سعود، وتوفي الإمام سعود بعد أن أصابه المرض. خير الدين الزركي: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، بيروت – دار العلم للملايين، أيار – مايو ٢٠٠٢م، ٣: ٩٠.

(١) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ٢: ٥٦٧، ٥٦٨.

(٢) محمد بن عبد الرحمن أحمد التركي: الإمام سعود بن عبد العزيز وجهوده في الدعوة إلى الله، سلسلة الرسائل الجامعية (١٣) ط١، جدة، دار الأندلس الخضراء، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ١١٥- ١١٧.

(٣) أغسطس رالي: رحالة، ٧١.

(٤) حسيب باشا: أُسندت إليه الولاية عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م، فقام بأعمال خيرية وإصلاحات في المجالات كافة وأهمها المعمارية، والعمرانية، والتعليمية، والقضائية، والأمنية، والعسكرية، ولكنه حينما أصر على توسعة المسعى الأمر الذي يتطلب هدم بعض الدور الداخلة في المشعر، قدم أهالي مكة من الأشراف شكوى للدولة العلية، توجه بها أحد فضلاء أم القرى، فتم عزله من قبل الدولة العلية، فتوجه إلى الآستانة التي أكرمت ضيافته، وأسندت إليه بعض المهام منها: نظارة الأوقاف إلى أن تُوفي عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م. محمد علي مغربي، أعلام الحجاز، جدة – مطابع دار البلاد ١٤١٤هـ، ٣: ٨٤-٨٦.

(٥) عثمان نوري: ١٢٥٦-١٣١٦هـ/ ١٨٤٠-١٨٩٨م، عين وليًا على الحجاز عام ١٢٩٩هـ-١٨٨٢م، عرف بنشاطه وحسن إدارته وتدينه وكثرة صدقاته، وعين واليًا على اليمن، ولكن بعض رجال دولته رفعوا=

الناس والطرق خلال فترة ولايته (١٢٩٩-١٣٠٣هـ/ ١٨٨٢-١٨٨٦م) من القبائل من خلال اتباعه اللين أو الشدة، وأثر ذلك بدوره على تطور الأسواق وازدهارها[١]، وأصبح النهب لا يمارس على نطاق واسع بين الذين يعيشون في الأراضي القريبة من أم القرى، أو فيها[٢]، وعملت السلطات على توفير فرص عمل للقبائل خاصة في المجال العسكري كالشرطة المحلية مستغلة في ذلك صفاتهم القبلية، وعينتهم على طرق القوافل لحفظ أمنها مع دفع مرتبات منتظمة لهم[٣]. وهذا يدل على الجهود التي بذلت في مكة المكرمة من أجل توطيد الأمن والأمان.

=إلى الباب العالي مضبطة أشاروا فيها إلى ضعفه وسوء أخلاقه فعُزل في ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م، ثم عين واليًا على حلب وبعدها عين واليًا للمرة الثانية على أم القرى عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٨٩م، وعزل بعد سنتين لخلافه مع الشريف عون الرفيق. أريج مسحل القثامي: مكة المُكرمة، ٤٩.

(١) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ١١، ٦٤- ٦٦.

(٢) جون لويس بوركهارت، ملاحظات عن البدو والوهابيين، ترجمه وعلق عليه: عبد الله الصالح العثيمين، عدد ٣٠٤، الرياض، دارة الملك عبد العزيز ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ٢٥٦.

(٣) فاطمة الشهري: الحياة العلمية، ص ٦٢، ٦٣.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة تظهر أهمية الأسواق، وقدرتها على دعم الأنشطة الاقتصادية المختلفة، وازدهارها، ومن ثم يجب الاهتمام بالأسواق كعامل رئيس من عوامل ازدهار قوة الدولة، وقدرتها على الإسهام الفاعل في مسيرة الأسواق المحلية والإقليمية والدولية ومنافساتها، وإيجاد ما يعرف بالاقتصاد الضخم القادر على إنعاش خزائن الدولة ووصولها إلى مرحلة طيبة من النمو الاقتصادي.

وكانت – وسوف تظل إلى يوم الدين – نعم المولى عز وجل وبركاته على أم القرى أهم أسباب ليس فقط ازدهار أسواقها ولكن مكة المكرمة عامة، وأن موسم الحج شكّل عمودًا فقريًا للأسواق المكية، ومثلت العمرات والزيارات مصدرًا فاعلاً ومهمًا لحركة الأسواق الحجازية بصفة عامة والمكية على وجه الخصوص، وأفادت الجاليات الإسلامية من هذه الأسواق، وأسهمت مساهمة فاعلة في اقتصادها، وبرز الطابع العالمي لأسواق بكة خلال فترة الدراسة، كما ظهرت الأسواق المتنوعة، كالدائمة، والسنوية، والموسمية، والمتخصصة، والمجمعة.

وأدى ارتباط مكة المكرمة بشبكة مهمة من الطرق إلى انتعاش أسواقها وزيادة أنشطتها. ولم يقتصر النشاط التجاري على الأسواق فقط، بل ظهر في ملحقاتها كالخانات والقاعات والحوانيت والقياسرة والأزقة والوكالات والحلقات والأزقة وغيرها.

ولم تكُن إدارة السوق من الناحيتين التنظيمية والإدارية تسير بطريقة عشوائية فردية غير مُنظمة، وإنما وفقًا لتنظيم دقيق وإشراف جماعي مُنظم، ليس فقط من قبل السلطات المحلية، وباهتمام من قبل السلطان العثماني نفسه ومساعدوه، وضمت الكوادر المسئولة عن الهيكلين التنظيمي والإداري في الأسواق، من أكبر سلطة في المجتمع المكي إلى من زاول أبسط الحرف أو الصناعات أو المهن، كما كان توفير الرعاية

الصحية لكل للأسواق وكل من يبيع أو يشتري بها من العوامل التي ساعدت على ازدهارها.

وأسهمت المساعدات العثمانية لمكة المكرمة في دعم القدرات الاقتصادية ومن ثم القدرة على ممارسة الأنشطة المختلفة في الأسواق، وكان رخص الأسعار، وتوافر السلع، ووجود الكثير من الخدمات، من أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار الأسواق المكية وانتعاشها، كما أسهم في ازهارها ظهور أساليب كثيرة للبيع والشراء، وتنوع العملات المتداولة وكثرتها، وتنوع المكاييل والموازين والمقاييس التي ظهرت بالسوق المكية، كما ساعدت الامتيازات الممنوحة إلى مكة المكرمة محليًا ودوليًا وبخاصة ما يتعلق بالإعفاء من الضرائب والرسوم الكثيرة والأعباء التي تثقل كاهل الأهالي إلى ظهور الحركة النشطة في أسواقها، والعمل في كثير من الأحيان بصورة دائمة ومستقرة، وأسهم مشروع افتتاح قناة السويس في دعم أنشطة أسواق مكة المكرمة وازدهارها

ونتيجة لاحتضان مكة المكرمة لكل من أتى إليها من المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ليشهدوا منافع دينية ودنيوية في تلك البقعة المقدسة وغفساح المجال لهم ليس فقط للعيش في رحابها واعتبارهم ذلك المكان الأطهر البوتقة التي تنصهر فيها الأمة الإسلامية ووتتحد، وإنما المكان الآمن لهم للمارسة أنشطتهم الاقتصادية المختلفة، فمارسوا أنشطتهم بكل حرية، وفرت أم القرى لهم.

أما الأمن فقد كفله المولى عز وجل للبلد الأمين ثم ساعدت السلطات على استتبابه ودعمه واستقراره، وكان ذلك الأمر من العوامل الرئيسة والمهمة التي أسهمت في ازدهار أسواق مكة المكرمة.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر العربية

السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، حققه كوكبة من العلماء، مكة المكرمة، ج٣، جامعة أُم القرى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

ثالثًا: المصادر المعربة

بوركهارت، جون لويس، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة: عبد العزيز الهلابي، عبد الرحمن آل الشيخ، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

بوركهارت، جون لويس، ملاحظات عن البدو والوهابيين، ترجمه وعلق عليه: عبد الله الصالح العثيمين، عدد ٣٠٤، الرياض، دارة الملك عبد العزيز ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

بيرسون، مايكل، الحج إلى مكة المكرمة من شبه القارة الهندية ١٥٠٠- ١٨٠٠، نقلهُ إلى العربية: معراج نواب مرزا، بدر الدين يوسف مُحمد، مراجعة وتعليق: معراج نواب مرزا، مركز تاريخ مكة والمدينة المُنورة، ١٤٣١هـ.

تاميزييه، موريس، رحلة إلى بلاد العرب (الحجاز)، ترجمه وعلق عليه: محمد بن عبد الله آل زلفة، الرياض، دار بلاد العرب للنشر والتوزيع ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

رالي، أغسطس، رحالة أوروبيون في الحجاز، ترجمة: بُطرُس رزق الله، مراجعة وتقديم: ماجد شبر، طبعة مُنقحة ومُفهرسة، بيروت، دار الوراق للنشر، د.ت.

روش، اثنتان وثلاثون، مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، نقلها للعربية: محمد خير محمود البقاعي، ط١، بيروت، جداول للنشر ٢٠١١م.

فالين، جورج أوغست (عبد الولي)، رحلات فالين إلى جزيرة العرب، ط٢، بغداد، دار الوراق للنشر ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

فراير كين، جون، ستة أشهر في الحجاز رحلتان إلى مكة المُكرمة والمدينة المُنورة في عام ١٨٧٧- ١٨٧٨م، ترجمة إنعام إيبش، ط١، رواد المشرق العربي، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكُتب الوطنية، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

كارستين، نيبور، رحلة عبر البلاد العربية والأخرى في الشرق، ج٢، إدينبرج ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م.

وافل، آرثر جون (الحاج علي الزنجباري)، رحلة الحاج المُعاصر إلى مكة عام ١٩٠٨م، ترجمة: ريم بو زين الدين، مراجعة وتحرير: أحمد إيبش، رواد المشرق العربي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتُّراث (المجمع الثقافي)، دار الكُتب الوطنية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

رابعًا: المراجع العربية

أبكر، عبد الله مُحمد، صور من تُراث مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق، ج ١، مؤسسة علوم القرآن، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

أرسلان، شكيب، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، مطبعة المنار بمصر، ١٣٥٠هـ.

أشموني، محمد علي بن منصور، السويقة جوهرة الأسواق، مكة المكرمة منبع العلم والحضارة أهلها- حاراتها- أسواقها، القاهر، ط١، زهراء الشرق ٢٠٠٦م.

آل زيد، الشريف مسعود محمد، تاريخ مكة المُكرمة ١٠٤١-١٢٩٩هـ - ١٦٣١-١٨٨١م، ط١، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠٠٥م.

أيبش، يوسف (جمع وتحقيق)، رحلات الإمام محمد رشيد رضا، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

البلادي، عاتق، معجم معالم الحجاز، ١-١٠، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، دار الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١١ م.

التازي، عبد الهادي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، ج٢، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ(٢٠٠٥م)، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

التركي، محمد بن عبد الرحمن أحمد، الإمام سعود بن عبد العزيز وجهوده في الدعوة إلى الله، سلسلة الرسائل الجامعية (١٣) ط١، جدة، دار الأندلس الخضراء، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

حبابي، عبد الله صالح، من حارة اليمانية إلى حارة المسفلة، مكة المكرمة منبع العلم والحضارة أهلها- حاراتها- أسواقها، القاهر، ط١، زهراء الشرق،٢٠٠٦م.

حسين، أحمد، مشاهداتي في جزيرة العرب، مطبعة مصر ١٩٥٠م.

حمزة، عبد الرازق محمد، العيش في مكة المكرمة، جدة، مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

رادين، عبد العزيز، حارة سوق الليل، مكة المُكرمة منبع العلم والحضارة أهلها- حاراتها- أسواقها، القاهر، ط١، زهراء الشرق ٢٠٠٦م.

رباح، إسحاق محمد، تطور النقود الإسلامية حتى نهاية عهد الخلافة العباسية، المملكة الأردنية الهاشمية، المكتبة الوطنية، عمان، دار كنوز المعرفة، مؤسسة أحمد الكوبري للطباعة ٩/ ٢٠٠٨م.

رضوان، نبيل عبد الحي، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ١٢٨٦هـ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٦٩ - ١٩٠٨م، ط١، جدة، مكتبة تهامة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

رفيع، محمد عمر، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، مكة المكرمة، منشورات نادي مكة الثقافي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الزهراني، ضيف الله بن يحي، غباشي عادل محمد نور، تاريخ مكة المكرمة التجاري، بمناسبة احتفال الغرفة بمرور خمسين عامًا على تأسيسها مكة المكرمة، ط١، الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة، اللجنة العليا المنظمة للاحتفال ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

السباعي، أحمد، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ج٢، المملكة العربية السعودية، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

السدحان، عبد الله بن ناصر، الترويح في المجتمع السعودي في عهد الملك عبد العزيز، دارة الملك عبد العزيز، رقم ٢١٣، ١٤٢٨م.

الشهري، ملفي بن حسن، الحجامة علم وشفاء، ط٢، دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، صالح، أحمد حلمي، الجامع في علم العلاج بالحجامة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤٣٤هـ.

عبد الرحيم، جهان بنت إبراهيم شار علي، الحرف التقليدية في مكة المكرمة في العهد السعودي ١٣٤٣-١٤٢٦هـ/ ١٩٢٤-٢٠٠٥م، إصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ مكة المكرمة، مكة المُكرمة، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥ م.

عبد العزيز، سامح إبراهيم، الظواهر الطبيعية والآثار العمرانية في مكة المكرمة من خلال كتابات الرحالة المغاربة في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، مكة المُكرمة، كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود لدراسات تاريخ مكة المُكرمة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

عبد الغني، عارف: تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨ هـ -١٣٤٤هـ، دار البشائر، ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

الفرياطي، العربي الدائز، الإمام الحافظ عبد الله بن سالم البصري شيخ المُحدثين بالحرمين الشريفين (١٠٤٩ - ١١٣٤هـ) دراسة شاملة لحياته وآثاره، جامعة لإنجازاته، مع تحريرات مهمة لا يستغني عنها، ط١، المغرب، منشورات آفاق مغربية للنشر، مدينة أبي الجعد، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

فهيم، محمد علي بيومي، ملامح النشاط الاجتماعي في مكة المُكرمة، ط١، القاهرة ٢٠٠٩م.
القزويني، حسين، العملة الإسلامية، ط١، الكويت، شركة الربيعان للنشر والتوزيع ١٩٩٥م.
الكردي، محمد طاهر، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مج، ٥، ٦، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
كيفي، إيمان بنت إبراهيم: الحياة الاجتماعية بمكة المُكرمة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود (١٣٤٣-١٣٧٣هـ/ ١٩٢٤-١٩٥٣م) اصدارات كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز لدراسات تاريخ مكة المُكرمة، مكة المُكرمة، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
مارديني، عبد الرحيم، الحجامة، دمشق، دار المحبة، بيروت، دار آية، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩م.
مغربي، محمد علي، أعلام الحجاز،ج٣، ط١، جدة، مطابع دار البلاد ١٤١٤هـ.
.................، ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري، الكتاب العربي السعودي (٥٥)، جدة، دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
النقر، عمر، تقليد زيارة الأماكن المُقدسة في إفريقيا الغربية دراسة تاريخية تعود بنوع خاص إلى القرن التاسع عشر، ترجمة باقادر، أبو بكر أحمد، الرحلات المكية، ط ١، جدة، دار كنوز المعرفة، صفر ١٤٣٢هـ/ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١م.
نوح، سمير عبد الحميد، الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة آداب الشعوب، رقم ٥، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
وهبة، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م.
يوسف، أحمد، النقود المُتداولة في مكة المكرمة في العصر العثماني حتى نهاية القرن ١٢هـ/ ١٨م، مكة المكرمة، كرسي الملك سلمان، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.

خامسًا: المراجع المعربة

صبري، أيوب (صنفها باللغة التركية العثمانية)، موسوعة مرآة الحرمين وجزيرة العرب ج٢، أشرف على ترجمتها: محمد حرب، ترجمها إلى العربية: ماجدة مخلوف وآخران، القاهرة، دار الأفاق العربية١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
فيلبي، هاري سانت جون، أيام عربية، تعريب: عباس سيد أحمد، مراجعة وتدقيق وتعليق: فهد بن عبد الله السماري، محمد حميدان العويضي، عبد الله المنيف، عبد الرحمن الشُقير، مراجعة، ط١، الرياض، مكتبة العبيكان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

سادسًا: الرسائل العلمية

الجابري، نزهة يقظان صالح، مورفولوجية مكة المكرمة الاجتماعية دراسة في تحديد المناطق الاقتصادية الاجتماعية في العاصمة المقدسة، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة أم القرى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

الحربي، محمد حميدان العويضي، نظم الحكم والإدارة في مكة في العهد العثماني الأول ٩٢٣ – ١٢١٧هـ/ ١٥١٧– ١٨٠٢م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز بجدة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦ – ١٩٨٧م. الحسني، سمير حمدي عبد الله، الشريف عون الرفيق وعلاقته بالدولة العثمانية وولاتها في الحجاز (١٢٩٩-١٣٢٣هـ/ ١٨٨٨-١٩٠٥م) دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

الزهراني، ليلي بنت عبد الكريم، جهود الملك عبد العزيز في مواجهة الأزمات الاقتصادية والأوبئة ١٣١٩– ١٣٧٣هـ/ ١٩٠٢– ١٩٥٣م، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أُم القرى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.

شروق بنت عبد الله بنت محمد، الأسواق التجارية في مكة من بداية الحُكم العُثماني حتى نهاية القرن الحادي عاشر (٩٢٣-١١٠٠هـ/ ١٥١٧– ١٦٨٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

الشريف، فريال عبد المجيد، مكة المكرمة كما جاءت في كتب الرحالة المُسلمين منذ القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة ماجستير، الدراسات العُليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القُرى، ١٤٠٠– ١٤٠١هـ.

الشهري، فاطمة بنت عبد الله بن علي، الحياة العلمية في مكة المُكرمة ١٢٥٦– ١٣٣٤هـ/ ١٨٤٠– ١٩١٦، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٦؛ بوركهارت، جون لويس، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة: عبد العزيز الهلابي، عبد الرحمن آل الشيخ، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ،١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

صديق، آمال رمضان عبد الحميد، الحياة العلمية في مكة (١١١٥-١٣٣٤هـ/ ١٧٠٢– ١٩١٦م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م.

الضيف، هند بنت عبد العزيز محمد، أسواق الحجاز في العصر المملوكي ٦٦٧– ٩٢٣هـ/ ١٢٦٨– ١٥١٧هـ دراسة تاريخية حضارية، ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإنسانية، قسم التاريخ، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.

الفهد، فهد أحمد حمين، العلاقات السعودية الإندونيسية في عهد الملك عبد العزيز ١٣٤٣-١٣٧٣هـ/ ١٩٣٢-١٩٥٣م دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والحضارة، كلية العلوم الاجتماعية بالرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
القثامي، أريج مسحل محمد، مكة المُكرمة في العهد العثماني (١٢٧٧-١٣٣٤هـ/ ١٨٦١-١٩١٦م) دراسة تاريخية حضارية، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
القرشي، منال مقبل محمد، المكاييل والموازين والمقاييس في ولاية الحجاز في العهد العثماني ٩٢٣-١٣٣٤هـ/ ١٥١٧-١٩١٦م دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
كشميري، ابتسام بنت محمد صالحين عبد الرحمن، مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ٩٦٣- ١٠٠٠هـ/ ١٥١٧-١٥٩١م، رسالة دكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
المصعبي، حميدة بنت عبد الله، السالنامة كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز خلال فترة الحُكم العُثماني (دراسة تحليلية لسالنامة سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جدة، مُحرم ١٤٣٥هـ/ نوفمبر ٢٠١٣م، ص٨٨، ٨٩؛ يوسف، عماد عبد العزيز، الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦- ١٩١٨م، ط١، العراق، شركة الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.
مليباري، أشواق بنت حمزة محي الدين، الأسواق في مدينة مكة المكرمة دراسة في النشأة والتطور والتوزيع، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة أم القرى، ١٤٣٠هـ.

سابعًا: البحوث والندوات

الأخرش، سعيد، مكة المكرمة وفقًا لتقرير رحلتين إسبانيتين في القرن التاسع عشر، بحث مقدم إلى ندوة المُكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ.
بهاي، جيهان بنت عبد الرحمن شاه، دور مكة المُكرمة في الحياة الاقتصادية، ص١٧٨، ١٧٩؛ الجرف، محمد بن سعدو، مصطفى، أحمد فريد، الأهمية الاقتصادية للأسواق الموسمية بمكة المُكرمة لموسم حج عام ١٤٢٣هـ دراسة مُقدمة إلى معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بجامعة أُم القرى، ١٤٢٣هـ.

الجريسي، عبد الرحمن بن علي، «الاقتصاد السعودي بين الماضي والحاضر مع التركيز على المدة ما بين ١٣١٩- ١٤١٩هـ»، بحث منشور في «المملكة العربية السعودية في مائة عام بحوث ودراسات»، دارة الملك عبد العزيز، المجلد التاسع، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.

حب الله، حيدر، مكة المكرمة عاصمة الوحدة الإسلامية، في مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ٣ بحوث ودراسات، الندوة الإسلامية الكُبرى لحج عام ١٤٢٤هـ.

السرياني، محمد محمود، مكة المكرمة دراسة في تطور النمو الحضري، مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية، عدد ٨٧، جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ/ مارس ١٩٨٦م.

صابان، سهيل، الصرة المرسلة إلى أهالي مكة المكرمة عام ١٠٧٨ بموجب الدفتر ١٣٢ من دفاتر الصرة في الأرشيف العثماني، بحث مقدم إلى ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية عام ١٤٢٦هـ مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ.

عامر، محمود، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، ع ١١٧، ١١٨، كانون الثاني (حزيران) لعام ٢٠١٢م.

غندر، إبراهيم صبحي السيد، خانات الطرق في القرن التاسع عشر دراسة اثارية حضارية في ضوء نموذجين بجبل سنهور بصحراء بني سويف، دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر السابع عشر، للاتحاد العام الآثاريين العرب، الندوة العلمية السادسة عشر عُقدت في الفترة من ١-٣ نوفمبر ٢٠١٤، القاهرة، مقر الاتحاد بالشيخ زايد، ٢٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

ثامنًا: الدوريات

أم القرى، ع ٣٠٤، ١١ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ/ ٣ أكتوبر ١٩٣٠م.

.........، ع ١٦٧، ٣ رمضان ١٣٤٦هـ/ ٢٤ فبراير ١٩٢٨م.

.........ع ١٤٤٨، ٧/ ٥/ ١٣٧٢هـ-٢٠/ ١/ ١٩٥٣م).

قريش، ع ٨٩ الثلاثاء ٢٦/ ٢/ ١٣٨١هـ= ٧/ ٨/ ١٩٦١م.

تاسعًا: المعاجم والقواميس

حسان، حلاق، صباغ، عباس، المعجم الجامع في المُصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، ط١، بيروت، دار العلم للملايين أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩م.

الخطيب، مصطفي عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/ ١٩٦٩م.
خير الدين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج٣، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، أيار – مايو ٢٠٠٢م. شير، السيد آدّي، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، ط٢، القاهرة، دار العرب للبستاني ١٩٨٧، ١٩٨٨م.
دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
الفيروز آبادي، معجم القاموس المحيط مرتب ترتيبًا ألفبائيًا وفق أوائل الحروف، رتبه ووثقه: شيحا، خليل مأمون، ط٤، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م. المطبعة الكاثوليكية (إشراف)، المنجد في الأعلام، ط٢٦، بيروت، د.ت.

عاشرًا: الموسوعات

عبد القدوس، موسوعة تاريخ جدة، ط٢، جدة، مطابع الروضة، ١٤٠٢هـ

حادي عشر: شبكة المعلومات الدولية الدولية

مكة، الرباع بناء معماري تميزت به مكة في العصر المملوكي، الخميس ٢٣ ربيع الثاني ١٤٣٦هـ- ١٢ فبراير ٢٠١٥م، ٢٨ ، ربيع الأول ١٤٤١هـ – ٢٨ نوفمبر ٢٠١٩م.

المجلة التاريخية المصرية ٥٣ (٢٠١٩) ١٠١ـ١٣٩

في النقد الاجتماعي
عند الفقيه القاضي أبي يحيى بن عاصم
وكتابه جنة الرضا
«جوانب من السلبيات الاجتماعية في الأندلس في عصر سيادة غرناطة»
«٧٩٤ –٨٥٧هـ/١٣٩١ – ١٤٥٣م»

عادل يحيى عبد المنعم

ملخص

يتناول البحث الحديث عن سلبيات المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة؛ آخر عصور المسلمين بالأندلس، وقد بدأت الدراسة بالحديث عن الفقيه القاضى أبى يحيى بن عاصم المتوفى بغرناطة سنة «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م».

كما قمت بالتعريف بكتابه «جنة الرضا فى التسليم لِما قدر الله وقضى»؛ وهو ما يندرج تحت ما يسمى بـ«أدب المحن والابتلاءات»، مشيرًا إلى أهمية الكتاب وثرائه ، وتعدد معارف مؤلفه ابن عاصم.

والبحث يشكل قراءة واعية للماضى؛ تلك القراءة التى من شأنها استخلاص العبرة والعظة، والاستفادة من دروس الماضى فى تجنب عوامل الضعف والسقوط، عسى الله تعالى أن يرزقنا مستقبلًا أفضل يولد من رحم الماضى.

Abstract

The research shows the draubacks of the Andalus Society in the era of Granada's domination; the Last age of Muslims in Andalus. I strated my study by talking about theologian Al – qadi "Abu yehia Ibn Assem" who died in Granada in 857 H /1453 A.D.

I also introduced his book "Janat Al-Reda fi A1- Tasleem Lima Qaddar Allah wa Qada" or "the paradise of submission to Allah's destiny" ; this is what is called "the fiction of plight and misfortune". the importance of the book, its wealth and the auther omniscience are pointed out .

The research represents a conscious reading of the past to avoid the elements of weakness and downfall. we beseech God Almighty to grant us amuch better future that is begot from the wombe the past. May Allah grant us, support and righteousness .

❋

❋ ❋

إشكالية الموضوع وأهميته والدراسات السابقة عليه

تناولت من قبل – في دراستي للماجستير جوانب من سلبيات المجتمع الأندلسي بدءًا من ظهور الكتابة التاريخية حتى سقوط غرناطة «٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م»؛ وذلك من خلال دراسة بعنوان النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، وقد قصرت الدراسة على السلبيات فقط، لاستخلاص العبرة والعظة، رغم أن المعنى اللغوى لكلمة نقد يعنى إبراز السلبيات والإيجابيات على حد سواء[١].

---

(١) يذكر العلامة اللغوى ابن منظور فى بيان معنى كلمة نقد ما يشير إلى أنه يعنى تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها؛ ويقول فى هذا الشأن: «ونقدت الدراهم وانتقدتها» والنقد بها المعنى يشير إلى معان مختلفة من=

وعلى الرغم من أننى تحدثت عن الفقيه القاضى أبى يحيى بن عاصم المولود فى غرناطة فيما بين سنة «٧٩٤ - ٧٩٩هـ/ ١٣٩١ - ١٣٩٦م» والمتوفى بها سنة «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م»(١)؛ إلا أننى رأيت الحديث من جديد عن ابن عاصم وكتابة جنة الرضا، استنادا إلى ما جاء بشأن أقسام التأليف عن شيء ناقص يتممه الباحث(٢)، وأن المحاولة الأولى ربما كانت ناقصة، فأردت أن أتممها بدراسة مستقلة عن الرجل وكتابه، بعد أن تناولته مع ما يقرب من ستين شخصية من المؤرخين والكتاب الأندلسيين؛ ويأتى هذا إدراكا منى بأهمية وثراء كتاب «جنة الرضا» وحاجته إلى أن يسلط الضوء عليه بالوصف والتحليل من الباحثين، هذا فضلا على تعدد ومعارف ابن عاصم ديننا وتاريخيا وأدبيا وثقافيا، بما يشير إلى وجود مادة علمية وتاريخية يمكن صياغتها بشكل أفضل من ذى قبل، آملا ألا يفت ذلك من أصالة البحث.

وفى هذا ما يعنى أن بحثى هذا يتناول جوانب وسلبيات المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة من خلال نقد الفقيه القاضى ابن عاصم، الذى أزعم أنه كان مدركا لما ينتقده، ولما يضع عليه يده من سلبيات مجتمعه، وأن استنطاق بعض نصوصه التاريخية من خلال كاتب هذه الكلمات لا يلغى وعى الرجل بما كان فى مجتمعه من سلبيات وخصائص، كان ينتقدها هو بنفسه، ويشعر بها ويتألم لوجودها.

أما عن الدراسات السابقة عن ابن عاصم وكتابه، فتكفى الإشارة هنا إلى مقدمة

=الفحص والتمييز وطرح الزائف وذكر السلبيات والإيجابيات على حد سواء. انظر: ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى المتوفى ٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، أعده: يوسف خياط، بيروت - دار لسان العرب بدون تاريخ، ٣: ٧٠٠.

(١) استندت فى هذا على ما جاء فى مقدمة التحقيق. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، ط١ دار البشير، عمان ١٩٨٩، ١: ٣٧؛ وقد قمت بتحديد فترة البحث الزمنية استنادًا إلى ما جاء فى مقدمة التحقيق.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه، القاهرة - مكتبة الخانجى ١٩٧٦، ٥١ وهو مما جاء من أقوال للمؤرخ التركى حاجى خليفة.

تحقيق كتابه جنة الرضا على يد أ. د. صلاح جرار، ومنها الكفاية والغناء عن بنى عاصم عامة، كما كان لنفر من المستشرقين الأسبان من أمثال أ. سيكودى لوثينا دورة فى التعريف ببعض مآثر أسرة بن عاصم، على نحو ما جاء أيضا فى مقدمة تحقيق كتاب جنة الرضا لصاحبه أ. د صلاح جرار(١).

ولعل أقدم الإشارات التاريخية عن كتابه جنة الرضا هو ما أورده أ. عنان – رحمه الله – أن الكتاب بمثابة رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة....(٢)، وهو ما سوف يتم مناقشته فى متن البحث تفصيلًا.

أما عن الحديث عن سلبيات المجتمع الأندلسى؛ فمن المرجح أنها جاءت عرضًا فى كثير من الكتابات التاريخية إن لم يكن فى جميعها، بيد أن هذه الكتابات لم تستخدم مصطلح «النقد الاجتماعى» وأفضى إلى اجتهادى بأن المصطلح اقتصر استخدامه على دراسات أدبية ذكرت أمثلة منها فى دراستى المشار إليها آنفا(٣).

---

(١) انظر ما جاء فى مقدمة تحقيق جنة الرضا عن بنى عاصم، ١:٣٨ – ٤٤.

(٢) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط ٤ القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٨٧، ٤: ٤٨٩.

(٣) سبق لى الإشارة إلى أننى لم أوفق فى العثور على كتابات تاريخية استخدمت مصطلح «النقد الاجتماعى». وكل ما أفضى إلى البحث به هو كتابات أدبية تعرضت لموضوعات اعتمدت على النقد الاجتماعى مثل كتاب «نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام للمويلحى» وهو من تأليف الأستاذ الدكتور/ أحمد إبراهيم الهوارى، وكتاب «النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى» لصاحبه د. يسرى محمد سلامة، وهناك نفر من علماء الاجتماع يشير إلى أن «النقد الاجتماعى» يرتبط بالمشكلات المجتمعية الجوهرية والعامة، وأنه يعتمد على الاستغراق فى مشكلات المجتمع، وما يسمى هنا فى نظرية علم الاجتماع بالمشكلات المجتمعية يمكن أن يعبر عنه الباحثون فى التاريخ – اجتهادًا – بأنه سلبيات المجتمع على امتداد عصوره التاريخية. انظر. عبد الباسط عبد المعطى: اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، الكويت – عالم المعرفة، الكويت أغسطس ١٩٨١ م، ٣٩. ضمن الفصل الأول فى حديثه بعنوان: «النقد الاجتماعى والوظائف النوعية لنظرية علم الاجتماع»؛ وانظر أيضا لصاحب البحث: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين (ق ٣ – ٩هـ/ ٩ – ١٥م) رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق ١٩٩٦ صفحات رقم ب، ج ضمن مقدمة الرسالة في بيان معنى النقد الاجتماعى؛ وقد تفضلت الهيئة المصرية العامة للكتاب – مشكورة – بنشرها فى كتاب يحمل نفس العنوان، ط١، ٢٠١٨.

وفى ختام هذا التقديم آمل أن يكون بحثى هذا قراءة واعية للماضى، تلك القراءة التى من شأنها تحقق العبرة والعظة والحكمة، كما أن فى تسليط الضوء على فترات الضعف والسقوط وتعدد السلبيات مايعين على تجنب مثل هذه الجوانب فى حياتنا المعاصرة، تماما كمن يقوم بالبحث فى أسباب الخلافات بين الدول وأسباب سقوطها فى الماضى، فمن هنا – ومن هنا فقط – يمكن أن يولد مستقبل أفضل من رحم الماضى.. وعلى الله قصد السبيل وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

التعريف بابن عاصم ومؤلفاته، وعهد سلطانه الأيسر

لعله من المفيد هنا أن اعتمد فى ترجمة ابن عاصم على ما قاله المقرى فى نفحه؛ مشيرًا إلى أن أهل الأندلس كانوا يسمونه بابن الخطيب الثانى، ويعرف به قائًلا إنه:

«هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجة، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم، القيسى الأندلسى، الغرناطى، قاضى الجماعة بها....».

ويضيف المقرى بشأنه أيضا أنه من أكابر فقهاء وعلماء ورؤساء الأندلس، وأنه أخذ عن الإمام المحقق أبى الحسن بن سمعت، والإمام القاضى أبى القاسم بن سراج، والشيخ الراوية أبى عبدالله المنثورى، والإمام أبى عبدالله البيانى... وغيرهم، وأنه تولى القضاء سنة «٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م»(١).

ويذكر المقرى نقولات بعض العلماء عن ابن عاصم، ومنها وصف ابن فرج السبتى لابن عاصم أنه: «الأستاذ العالم الصدر المفتى القاضى رئيس الكُتَّاب، ومعدن

---

(١) المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى المتوفى ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق: يوسف البقاعى، بيروت – دار الفكر ١٩٨٦، ٨: ٢٩٠ – ٢٩١.

السماحة، ومنبع الآداب... ويمضى المقرى فى ذكر نماذج من نثره، وشعره، وإنشائه، ويفيض فى ذكر ظهير تولية القضاء، مُختتمًا هذا كله بأن ابن عاصم كان يلقب فى الأندلس بابن الخطيب الثانى»(١).

وقد جاء فى مقدمة تحقيق كتابه جنة الرضا – موضوع البحث – أن مولده جاء فى نهاية «ق ٨هـ/ ١٤م» وبداية «ق ٩هـ/ ١٥م» وأن ولادته صادفت انتهاء عهد الاستقرار السياسى فى مملكة غرناطة، ودخولها فى سلسلة من الفتن المتلاحقة التى أدت لسقوطها عام «٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م».

كما جاء أيضا أنه قد ولى اثنى عشرة خطة فى وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابة والخطابة والإمامة وغيرها؛ ويُفهم من الألقاب التى أضيفت على اسمه أنه كان كاتبًا ورئيسًا للكتاب، وخطيبًا ووزيرًا، وشاعرًا وناثرًا، وإمامًا ومفتيًا وقاضيًا للجماعة، فضلًا على تقدمه فى العلوم والفنون وتضلعه بالحفظ والتحقيق(٢).

ولعل أهم مايمكن استخلاصه من ترجمة ابن عاصم، ومن استقراء ترجمته، أن

---

(١) المقرى: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٩١، ٣٠٤؛ والشخصيات الوارد ذكرها فى المتن تشير إلى شيوخ ابن عاصم، ومنهم قاضى الجماعة بغرناطة أبى القاسم محمد بن يوسف بن سراج الأندلسى الغرناطى، وأبى الحسن بن سمعة، وأبى عبدالله المنتورى، وأبى عبدالله البيانى، وسوف يتم التعريف بهذه الشخصيات أثناء سياق البحث، ويمكن التعريف بهم إجمالًا من خلال مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، ج١: ٤٤-٤٧.

(٢) مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا، ١:٣٦، ٣٧، ٦٠، ٦١، وقد أفاض أ. د صلاح جرار فى التعريف بابن عاصم من جميع الجوانب، ويمكن الرجوع إلى مقدمة التحقيق، صفحات ١٤، ٣٥ – ٦٠، ولمزيد من التفاصيل حول ابن عاصم ونشأته وحياته ومؤلفاته يمكن الرجوع إلى.المقرى: أزهار الرياض فى أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبى، القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩، ١: ١٤٥ – ١٧٩؛ وفيما يتعلق بترجمة ابن عاصم أيضا يمكن الرجوع الى. محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ، القاهرة – المطبعة السلفية ومكتبتها، على نفقة دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، ٢٤٨ – ٢٤٩ ترجمة رقم ٨٩٧؛ خير الدين الزركلى: الأعلام، بيروت- دار العلم للملايين ١٩٨٩، ٧: ٤٨.

الرجل من بيت علم وفقه ورئاسة وقضاء وأدب، وهو ما أوضحه الأستاذ عنان فى حديثه عن الحركة الفكرية فى غرناطة فى عصرها الأخير(١).

كما أنى أردت الإتيان بوصف مصادر الترجمة له على ماهى عليه دون تدخل منى، حتى يتبين للقارئ الكريم أن المصادر لم تسبغ عليه صفة المؤرخ؛ فيما يعنى أنه لم يكن مؤرخًا فى المقام الأول. وهى إشكالية سوف يتم مناقشتها عند الحديث عن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم(٢).

وتبقى الإشارة هنا إلى أهم مؤلفات ابن عاصم، وهو كتابه «جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى» وهو موضوع بحثى الرئيسى؛ كما أن من مؤلفاته أيضا كتاب آخر أسماه: «الروض الأريض فى تراجم ذوى السيوف والأقلام القريض» وهو مما ذيل به

---

(١) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ٤٨٩؛ ومما يدل على أن ابن عاصم صاحب الجنة، ومحور حديثى بحثى هذا من بيت فقه وعلم ورئاسة وقضاء وأدب ما أفاض المقرى فى ترجمة الأب (أبى بكر بن عاصم) بقلم ابنه أبى يحيى عاصم، والأب هو صاحب تحفة الحكام، فى أصول الفقه، وصاحب كتاب حدائق الأزاهر، وهو كتاب معروف للمتخصصين فى الدراسات الأندلسية، وتم طبعه، واستفدت منه فى دراستى للماجستير وكانت وفاته سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)، وقد جاء فى مقدمة تحقيق جنة الرضا مايشير إلى مآثر أسرة بنى عاصم من العلماء والسياسيين، وما كتبه أيضا المستشرق الأسبانى أ/ سيكودى لوثينا فى هذا الشأن عن (ابن عاصم) الشهيد فى مجلة الأندلس، وهو ما تختلف الآراء حول كونه «عم» صاحب الجنة، أو ابن عم لأبيه، وفى هذا كله ما يشير إلى دور أعلام هذه الأسرة فى المجالات الثقافية والسياسية.. وغيرها. انظر. فى التعريف ببعض أعلام أسرة بن عاصم. المقرى: نفح، ٧: ١٩-٢٢؛ ابن القاضى (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى المتوفى ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م): درة الحجال فى أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة - المكتبة العتيقة، دار التراث ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ١: ٢١٩ -٢٢٠ ترجمة رقم ٣١٦ لابن عاصم الأب صاحق التحفة؛ عنان: نهاية الأندلس، ٤٨٨ - ٤٨٩؛ مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا، ١: ٣٨-٤٤؛

LUS SECO DE LUCENA PAREDES: "Una Hazaña De Ibn Asim, Identificada.", Al – Andalus", Vol., XVIII., Madrid – Granada 1953 p.p. 209-211.

(٢) يكفينى القول هنا أن ابن عاصم كان يمثل نمطًا من الكتابة يعد التاريخ ضمن مكوناتها، وإن لم يكن أول أولوياتها، وقد يكون هذا النمط استجابة لحاجة المجتمع الأندلسى آنذاك،وحاجة ابن عاصم نفسه ليدق ناقوس الخطر من خلاله.

إحاطة ابن الخطيب؛ وقد أورد المقرى بعضًا من نقولات هذا الكتاب فى النفح والأزهار، بيد إنه يبدو قليل القيمة، خاصة فى موضوع بحثى هذا الذى يعتمد على ذكر السلبيات والنقائص فى مجتمع غرناطة، اللهم إلا فى إحدى المرويات التاريخية التى ستبدو واضحة فى متن البحث وحواشيه.

كما أن لابن عاصم كتاب آخر بعنوان:- شموس العصر فى ملوك بنى نصر؛ وفيه يترجم لملوك بنى نصر، ملوك غرناطة، حتى عصر المؤلف، وهو مما لم يصل إلى الباحثين، وتبقى أهم كتابات الرجل على الإطلاق كتابه الموسوم سابقًا «جنة الرضا...»؛ وقد أنهى ابن عاصم تأليفه لهذا الكتاب فى صفر سنة «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م» مما يدل على أن وفاته كانت أواخر عام «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م» أو أوائل سنة «٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م»(١) وقد أرخ فى كتابه هذا لعهد سلطانه الغاب بالله محمد بن نصر الأيسر(٢).

---

(١) عن آثار «ابن عاصم» ومؤلفاته العلمية يمكن الرجوع إلى. مقدمة تحقيق جنة الرضا، ١/ ٦٨ - ٧٠؛ وقد ورد ذكر مؤلفات ابن عاصم ضمن المصادر التاريخية التى ترجمت له مثل المقرى فى النفح، والأزهار، فضلًا على جهوده فى مجال الفتاوى التى أوردها الونشريسى فى معياره، وأوضحها أ. د صلاح جرار فى مقدمة تحقيقه ٧٠، وليس من شأن البحث الإسهاب فى جميع هذه الجوانب ولذا أحيل القارئ إليها.

(٢) تختلف الآراء حول شخصية سلطان غرناطة الذى عاصره ابن عاصم، وهو السلطان الغالب بالله محمد بن نصر الأيسر؛ من حيث أنه هو محمد الثامن الذى لقب بالأيسر، أو هو محمد التاسع الذى لقب بالأيسر، والحق أن الباحث يجد تداخلًا كبيرًا فى هذا الشأن بين المرويات العربية والأجنبية على النحو الذى جاء فى مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا؛ بيد أن المرجح هنا هو أن «محمد الأيسر» قد تولى حكم غرناطة فى أعقاب خلع محمد بنيوسف الثالث سلطان غرناطة سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)، وأنه ربما سمى الأيسر لسوء حظه فى الملك، وأن أول اعتلاء لمحمد الأيسر لعرش غرناطة كان سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) وأنه ظل فى الحكم حتى سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م عندما خلعه محمد الثامن (وهو محمد بن يوسف بن يوسف المعروف بالصغير)، ولجأ محمد الأيسر إلى كنف الدولة الحفصية فى تونس، واستطاع بمساعدتها - ومع مساعدة ملك قشتالة خوان الثانى - على أن يسترد عرشه بعد سنتين من خلعه أو عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م). وظل الأيسر يحكم غرناطة حتى عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م عندما ساند البلاط القشتالى الأمير يوسف بن محمد بن المول فى انقلابه على الأيسر الذى فر إلى مالقة، ثم عاد الأيسر مرة ثالثة لحكم غرناطة بعد ستة أشهر من انقضاء عام (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)=

وأبو عبدالله محمد الملقب بالأيسر هو أحد الذين تولوا عرش غرناطة فى أعقاب خلعه سلطان غرناطة محمد بن يوسف الثالث سنة «٨٢٢هـ/ ١٤١٩م» بعد حكم دام

=بعد وفاة ابن المول أو التخلص منه، وتم ذلك بمساعدة الفونسو الخامس ملك أراغوان الذى كان فى عداء مع قشتالة، فضلا على مساعدة الحفصيين له. وقد استمر محمد الأيسر فى حكم غرناطة حتى عام (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) عندما ثار عليه ابن أخيه محمد بن عثمان الأحنف أو الأعرج، وتشير الأحداث إلى أن الأيسر كان ملكًا على غرناطة عندما قام ابن اخته «يوسف بن محمد بن نصر» بالثورة عليه سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)، وفى ثنايا كتاب جنة الرضا يخبر ابن عاصم بأخبار فتنة سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وقيام انقلاب من المدعو « الرئيس إسماعيل» على الأيسر فيما يوحى بقيام حوالى خمسة انقلابات على ابن الأيسر أثناء حكمه الذى امتد إلى أواخر سنة « ٨٥٨هـ/ ١١٥٤م »، وهو العام الذى شهد موته على يد الأمير سعد بن الأحمر الذى أصبح سلطانًا على غرناطة، ويتزامن هذا العام أيضا مع قتل أبى يحيى بن عاصم صاحب جنة الرضا، وقد أفضت فى بيان السياق التاريخى لعهد السلطان الأيسر لكى يتبين للقارىء أن أيًا من الأطراف السياسية المتواجدة على الساحة كانت تستنجد إما بقشتالة، أو أرغــون دونما إعلاء لمصالح الوطن، وهو ما يرجح ما أوضحه أ. د حسين مؤنس بأن شعب غرناطة ظل يكافح فى سبيل بلاده إلى آخر لحظة، وأن الذى قصروا فى حق هذا البلد وأضعفوه، وكانوا سببا فى سقوطه فى يد الأسبان هم ملوكه وأمراؤه الذين لم يشعروا بواجبهم حياله. انظر. فى هذا السياق التاريخى والأحداث المذكورة.

مقدمة تحقيق كتاب جنة الرضا، ١٥-٣١؛ عنان: نهاية الأندلس، ١٥٤- ١٦٨؛ مؤنس: مقدمة تحقيق كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمؤلف مجهول، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة - الزهراء للإعلام الأعلام ١٩٩١م، ٩، ١٠؛ وقد أفاض أيضا أ. د عبدالعزيز الأهوانى فى الحديث عن عهد «محمد الأيسر» مشيرًا إلى أنه الرابع من ملوك غرناطة، والثامن ممن يحملون اسم محمد وهو الملقب بالأيسر، وأنه صاحب السفارة إلى الظاهر جقمق سلطان مصر، وأن السفارة كانت فيما بين سنتى «٨٤٤ أو ٨٤٦هـ/ ١٤٤٠ أو ١٤٤٢م» ويفند د. الأهوانى عدد الانقلابات التى حدثت للأيسر فى عهده، وأن المراجع الأجنبية تكتب اسم الأيسر على هذا النحو: Mohamed VIII El Izquierdo. Oelzurdo

انظر. عبدالعزيز الأهواني: «سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري»، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج ١، مج ١٦، مايو ١٩٥٤، ١١٣ - ١١٨؛ وعن اختلاف الرواية الأجنبية بشأن الملقب بالأيسر، وذكر نفر منهم على أنه محمد الثامن وليس التاسع يمكن الرجوع إلى:

= CONDE (J.A): Histroy of the Dominion of the Arabsin Spain., vol. 3, Translated by: Mrs Jona foster., London. P. 309؛

RACHEL ARIE: L'espagne Musulmane Au Temps des nasrides., " 1232 – 1492: Paris 1973. P 131، 450؛

غير أن المرجح لى - من السياق التاريخى المذكور - أن الأيسر هو محمد التاسع وليس الثامن.

ما يقرب من سنتين عقب وفاة أبيه يوسف الثالث سنة «٨٢٠هـ/ ١٤١٧م»[١] وكان أبو عبدالله محمد الملقب بالأيسر أميرًا صارمًا سيىء الخلال، متعاليًا على أهل دولته، بعيدًا عن الاتصال بشعبه، منقبضًا عنهم، لا يكاد يبدو فى أية مناسبة عامة[٢].

وكان وزيره «يوسف بن سراج» واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه؛ إلا أن هذا لم يمنع من قيام الثورة عليه تنادى بولاية الأمير «محمد بن محمد بن يوسف الثالث» الملقب بالزغير؛ وهو الذى نجح فى الإطاحة بأبى عبدالله الأيسر، وظل الزغير حاكمًا لغرناطة لمدة عامين وبضعة أشهر، استطاع الأيسر خلالها العودة إلى غرناطة سنة «٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م» بعد أن تخلص من الزغير بالسجن أو القتل حسب اختلاف المروية التاريخية[٣].

---

(١) مقدمة تحقيق جنة الرضا، ١٢، ١٣؛ ويرجح السياق التاريخى أن محمدًا هذا هو محمد الثامن، وهو ابن سلطان غرناطة يوسف الثالث.

(٢) عنان: نهاية الأندلس، ١٥٤.

(٣) عنان: المرجع السابق، ١٥٥ – ١٥٦؛ والأمير الملقب بالزغير الوارد ذكره هنا لعله أبى عبدالله الزغير الذى جاء ذكره ضمن الوثائق العربية الغرناطية، وثيقة رقم (١٩)، وفيها إشارة إلى دنانير تم ضربها فى عهد السلطان أبى عبدالله الزغير، وكلمة الزغير هى النطق العامى الأندلسى لكلمة صغير. انظر. لويس سيكودى لوثينا: وثائق عربية غرناطية، منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، ط ١، مدريد ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، ٤٠، وثيقة رقم ١٩؛ حاشية رقم (٢) من كتاب نهاية الأندلس للأستاذ عنان ١٥٥ – ١٥٦؛ والوزير يوسف بن سراج الوارد ذكره فى المتن. يرجع نسبه إلى «بنى سراج» وهم من الأسر العربية العريقة التى يرجع أصلها إلى مذحج وطئ من البطون العربية العريقة والتى وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح، وكانوا من أعيان أهل قرطبة حسبما يذكر المقرى، مشيرًا إلى منزلهم بمرسية أيضا. انظر عنهم: المقرى: نفح الطيب، ١: ٢٨١؛ عنان: نهاية الأندلس، ١٥٥؛ وعن بنى سراج أيضا. يذكر الأمير شكيب أرسلان أن بنى سراج من أشهر العشائر العربية، وأن التاريخ لا يعرف عن بنى سراج سوى وزراء سلاطين غرناطة. انظر. شكيب ارسلان: رواية آخر بنى سراج للكاتب الفرنسى الفيكونت درشاتوبريان، ويليها خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة، ويليها كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، القاهرة – مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، ٣، ٦٤؛ وكان من بين شيوخ ابن عاصم من بنى سراج، قاضى الجماعة بغرناطة أبو القاسم محمد بن يوسف بن سراج الأندلس الغرناطى. انظر فى التعريف به. مقدمة تحقيق جنة الرضا، ٤٤– ٤٥؛ والجدير بالذكر أن أغلب الانقلابات التى حدثت ضد الأيسر كانت تتم بمساعدة نصارى إسبانيا، أو–

وعند هذا الحد أتوقف عن التعريف بالسلطان الأيسر(١)، تمهيدًا لعرض التقلبات السياسية والصراع على السلطة ضمن جوانب السلبيات التى اختص بها ابن عاصم المجتمع الغرناطى، وعرضها فى كتابه «جنة الرضا»؛ إذ أن الأحداث تشير - فى أعقاب الانقلاب الأول المذكور سابقا - إلى بروز ابن عاصم على مسرح الأحداث.

ولعله من المفيد هنا التعريف بكتاب «جنة الرضا» وبيان فلسفة التاريخ عند مؤلفه ابن عاصم، تمهيدًا لذكر السلبيات والنقائص فى المجتمع الغرناطى؛ إذ إن انتقادات ابن عاصم لا يمكن عزلها عن وصف وتحليل كتابه «جنة الرضا»، وبيان فلسفة التاريخ لديه، وهو ما سوف يتم تناوله فى الصفحات التالية بإيجاز.

التعريف بكتاب جنة الرضا - وثقافة ابن عاصم

لعل أهم ما أهدف إليه من خلال هذه السطور هو التعريف بكتاب جنة الرضا، وبيان ثقافة مؤلفه وقدره؛ وثمة آراء تشير إلى أن الكتاب يعد رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة فى عصر ابن عاصم، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ووصف أساليب السياسة الإسبانية فى الكيد والتفريق بين المسلمين(٢).

بيد إن المتأمل لكتاب «جنة الرضا» يصعب عليه التسليم بأنه رسالة فلسفية، فالمرء يصعب عليه مقارنة جهد ابن عاصم بما كتبه «ابن طفيل» فى رسالته «حى بن يقظان» وهى رسالة فلسفية حقًا؛ إلا أننى أتفق مع ما جاء فى مقدمة تحقيق «جنة الرضا» بوجود تشابه بين منهج ابن عاصم فى الجنة، ومنهج ابن حزم فى «طوق الحمامة» فيما يأتيان به من

=اللجوء إلى قشتالة أو أراغون، وكان الأيسر نفسه يلجأ إلى أحدهما ومساعدة أسرة بنى سراج للتغلب على من يناوئه، فضلًا على نصرة الجانب الحفصى فى تونس له، وهو ما سوف يتضح فى سياق الأحداث التى يذكرها ابن عاصم ضمن سلبياته عن المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة.

(١) لمزيد من التفاصيل عن الجوانب السياسية والانقلابات فى عهد السلطان الأيسر يمكن الرجوع إلى حاشية رقم (١٣) من حواشى البحث.

(٢) عنان: نهاية الأندلس، ٤٨٩.

حـوادث تاريخية «تخص الأندلس – أو غرناطـة»، كـل فى موضوعه(١).

وإذا كان لابد من البحث عن الجانب الفلسفى فى كتاب جنة الرضا؛ فيمكن القول أن الكتاب يعد رسالة ذات صبغة دينية فلسفية إسلامية يتخللها جوانب تاريخية وأدبية وصوفية صيغت بأسلوب بيانى رائع، استخدم فيه كافة المحسنات البديعية، ولا غرو فى ذلك فمؤهلات ابن عاصم – السابق ذكرها – تساعده على ذلك(٢).

ويدور موضوع كتاب جنة الرضا حول «المحن والابتلاءات» التى تصيب البشر من خلال «صور ست» يذكرها ابن عاصم فى مقدمة كتابه؛ وفى ثنايا هذه الصور تأتى المادة التاريخية مشرقية ومغربية وأندلسية، كما أن من أهم دوافع تأليف الكتاب هو أجواء الفتنة التى كانت تسود مملكة غرناطة، وهو ما كان دافعًا لابن عاصم لتقديم العبرة والعظة من خلال كتابه(٣)، على نحو ما سوف يُرى فى المتن.

(١) مقدمة تحقيق جنة الرضا، ٨١؛ وعن حى ابن يقظان لابن طفيل وفلسفته، واسقاطاته النقدية من وراء فلسفته. يمكن الرجوع إلى ما كتبه الباحث عن: النقد الاجتماعى عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، رسالة ماجستير سبق ذكرها، ١٨٩-١٩٠.

(٢) ما قلته هو استقراء من واقع قراءة كتاب جنة الرضا بأجزاءه الثلاثة، واعتماد مؤلفه على مصادر دينية وأدبية وفقيهة وصوفية، وهو ما يتضح من فهارس كتاب جنة الرضا للمحقق.

(٣) عن ظروف تأليف كتاب: جنة الرضا، وأسباب تأليفه، ومنهج ابن عاصم فى كتابه، والصور الستة التى تعبر عن الابتلاءات بشتى أنواعها؛ كتلك التى تصيب المقتنيات العزيزة على النفس من المال والجاه، أو التى تصيب النفوس يمكن الرجوع إلى. مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا، ٧٤-٨١؛ ويعد موضوع «المحن والابتلاءات» من الجوانب أو الموضوعات التى ألف فيها أهل المغرب الإسلامى عامة سواء أكان من المغرب أو الأندلس فى الفترة المبكرة من تاريخهم، ويمكن الرجوع فى هذا الشأن إلى ما كتبه أبو العرب التميمى فى «كتاب المحن»، وقام بتحقيقه الدكتور يحيى وهيب الجبورى الأستاذ بجامعة قطر. وتحدث فيه أبو العرب عمن «ضُربوا من أهل إفريقية» وعن محنة سحنون بن سعيد بخلق القرآن، والكتاب كله ابتلاءات فيمن ضُرب وقُتل وسُجن وامتُحن. انظر. أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمى المتوفى ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م): كتاب المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبـورى، بيروت - دار الغـرب الإسلامي ١٩٨٨، ٤٥٩، ٤٤٩-٤٥٢؛ وقد استشهدت بهذا الكتاب للدلالة على ان ابن عاصم لم يكن أول من ألف فى المحن والابتلاءات، آخذًا فى الاعتبار ان تاريخ الثقافة العربية لم يكن ليفرق بين ما هو مغربى وما هو أندلسى، وهو ما قال به أ.د حسين=

ولست فى حاجة للحديث عن روافد ابن عاصم الثقافية ومصادر كتابه؛ إذ أننى لا أكتب عن جهود الرجل فى البحث التاريخى، حسبما كتب فى هذا الشأن أكثر من باحث(١)، وإن كان من الممكن القول أن ابن عاصم يملك ثقافة إسلامية ودينية أقرب إلى الكمال فى موسوعيتها؛ ومن هذا المنطلق فيمكن أن يطلق عليه – ترجيحًا – «عالم الدين – المؤرخ» أو «الفقيه – المؤرخ»، وهو فى هذا الشأن يُذكِّر بما يُكتب فى الآونة المعاصرة من كتابات تاريخية لكتاب ليسوا مؤرخين فى الأصل، أو أكاديميين بالمعنى العلمى المعاصر، لكن كتاباتهم تبدو على قدر كبير من الأهمية فيما تقدمه للباحثين من خدمات رغم الاختلاف بشأنها.

ولعل أهم ما يلفت الانتباه فى التعريف بكتاب جنة الرضا هو مناقشة وتحليل عنوان كتابه «جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى»؛ حيث يذهب ابن عاصم إلى ضرورة التفويض لما يقدره الله ويقضيه، ونصَّ الرجل على ذلك فى مقدمة كتابه بعد كلام تقدم، يدعو فيه الله – سبحانه وتعالى – أن ينال الرضا بما يأتى به القضاء من الخطوب الكوارث، والتفويض لله فى مواقع أقداره، والتسليم له فى إيراد كل أمر وإصداره(٢).

والأمر لا يناقش من الناحية العقائدية؛ إذ أن المرء المسلم لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، إلا أن الباحث المدقق لعنوان كتابه يجد نزعة استسلامية لقضاء الله – سبحانه وتعالى – وقدره، وقد يدفع هذا إلى القول بأن الرجل يلغى دور البيئة، ودور الإنسان فى فعل وحدوث الحدث، والمراد بالحدث هنا «سقوط

=مؤنس رحمه الله. انظر. مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد ١٩٦٧، ٥١٩.

(١) انظر على سبيل المثال ما كتبه د. عبدالحليم عويس عن ابن حزم وجهوده فى البحث التاريخى، وما كتبه أ. ليث سعود جاسم عن ابن عبد البر وجهوده فى البحث التاريخى.

(٢) ابن عاصم: أبو يحيى محمد بن عاصم ت «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م» جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، ١، تحقيق: صلاح جرار، عمان – منشورات الجامعة الأردنية، دار البشير ١٩٨٩، ١٠٧.

غرناطة»، وهو السقوط الذى كان ابن عاصم يستشرف آفاقه، ويدرك حتمية حدوثه، وكأنه يقرأ حجب المستقبل من خلال معاصرته لأحداث مملكة غرناطة، ويدعو الله – سبحانه وتعالى – أن يلهمه الرضا بما قدر وقضى.

ولا أريد الحكم على ابن عاصم بمقياس عصرى حديث؛ فثمة آراء تشير إلى أن نسبة الأحداث إلى القدرة الإلهية والمشيئة الربانية تلغى أى دور للإنسان سوى دور الأداة أو قطعة الشطرنج، كما تنهى تمامًا أى دور للبيئة؛ وقد ينطبق هذا على معظم مؤرخى العصور الوسطى من المسلمين والكنسيين(١)؛ إلا أن رجاء الرجل ودعاءه بأن يلهمه الله – عز وجل – الرضا بما قدر وقضى لم يأت إلا بعد أن أعيته أمور الحكم والحكام فى غرناطة، والمواطن الذى يعيش غمار الفوضى، والفتن والاضطرابات، والطبقة الحاكمة التى لا يهمها سوى السلطة والنزاع على الحكم، والبيئة الأندلسية التى تتقلص مساحتها يومًا بعد يوم، حتى اقتصرت على غرناطة وما حولها(٢)؛ وهو ما دفعه إلى الأخذ بزمام المبادرة فى الدعوة إلى وحدة البلاد، ونبذ الفرقة والانقسام والاختلاف؛ على النحو الذى يُذكِّر بدعوة القاضى أبى

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، القاهرة – دار المعارف ١٩٨٥، ٤٣.

(٢) كان قيام مملكة غرناطة فى الركن الجنوبى من شبة الجزيرة الأيبرية – فى بدايتها عام «٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م» – يمثل نصف مساحتها، أى نصف مساحة شبه الجزيرة الأيبيرية، وهذه المساحة تختلف وتتفاوت نتيجة للضعف الذى حل بمملكة غرناطة، وطبيعة الصراع بين المسلمين ونصارى إسبانيا.

انظر. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة – دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠، ٢٢٨؛ وغرناطة هى مدينة كورة إلبيرة، وصارت حاضرة الصقع بعد خراب إلبيرة فى الفتنة البربرية، ومعناها الرمانة بلسان عجم الأندلس، وسميت بذلك لحسنها. انظر. ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبدالله محمد ت «٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م» الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٧٣، ١: ٩١-٩٣؛ اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت – دار الآفاق الجديدة ١٩٨٠، ٢١؛ ياقوت الحموي (شــهاب الدين أبى عبدالله المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، بيروت – دار صادر بدون تاريخ، ٣: ١٩٥؛

MIGUEL ALCANTRA: Historia De Granada, T. 3.. Granada 1906. P 64 – 65.

الوليد الباجى فى الدعوة إلى وحدة الأندلس[١].

والحق أن ابن عاصم يرى أن ما يحل بالمرء من ذنوب ما هو إلا نتيجة لما كسبت يداه، ويستشهد فى ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَٱتَّقُوا فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٢] ولعل فى هذا ما يرجح ماسبق قوله فى وصف ابن عاصم بأنه «الفقيه – المؤرخ، أو عالم الدين – المؤرخ»، إذ لا يمكن إنكار الحاسة التاريخية لديه.

بل إننى أذهب إلى ما هو أكثر من ذلك فى ثقافة ابن عاصم، وهو إيمانه بما يسمى الآن بالتفسير الإسلامى للتاريخ؛ والذى يؤكد القرآن الكريم من خلاله – أى من خلال هذا التفسير – بأن أية أمة – مؤمنه كانت أم غير مؤمنة – إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها أمام الله، وأمام التاريخ[٣]؛ وهذه النزعة تبدو واضحة فى نقد المجتمع فى غرناطة، وكشفه عن سلبيات ونقائص عصره، وهو ما سوف يتم توضيحه فى أعقاب الحديث عن فلسفة التاريخ عنده؛ إيمانًا بأن هذا يفسر كثيرًا من انتقاداته.

فلسفة التاريخ عند ابن عاصم

من المفيد هنا الإشارة إلى ما بذله أ. د. حسين مؤنس من جهد حول التعريف باصطلاح «فلسفة التاريخ» وذلك ضمن كتابه القيم عن التاريخ والمؤرخين؛ مشيرًا إلى أن اصطلاح فلسفة التاريخ يمكن أن يكون له ثلاثة معان رئيسية[٤]. ولعل من

---

(١) عن القاضي أبى الوليد الباجي ودعوته إلى وحدة الأندلس يمكن الرجوع الى. عبدالرحمن على الحجى: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة،القاهرة – دار الاعتصام ١٩٨٣، ٣٣٨، ٣٣٩؛ والقاضى أبو الوليد الباجى أشهر من أن يُترجم له فى التاريخ الأندلسى.

(٢) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ١٢٤؛ والآية القرآنية الكريمة من سورة الأنفال، آية رقم ٢٥.

(٣) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى للتاريخ، بيروت – دار العلم للملايين ١٩٩١، ٢٦٣.

(٤) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دارسة فى علم التاريخ، القاهرة – دار المعارف ١٩٨٤، ٣٦-٣٧.

أهم ما يعبر عن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم – فى كتابه جنة الرضا – هو ما جاء عن نظرته العامة التى تنبثق من خلال منهجه فى الكتابة.

وقد سبق القول أن ابن عاصم لم يكن مؤرخًا فى المقام الأول؛ إلا أنه من الصعب أن يُسلب الرجل فى حاسته التاريخية، وفلسفته التاريخية، وإذا كان هناك من الدراسات التاريخية ما يشير – فى بداية نشأة التاريخ على أرض الأندلس حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى – إلى أن التاريخ كان جزءًا من التعليم الدينى يتناوله الفقهاء والمحدثون[١]؛ فإن هذا الأمر قد استمر فى معظم فترات وعصور التاريخ الأندلسى، إن لم يكن فى جميعها، حيث أقبل الكثيرون على التأليف والكتابة فى التاريخ ممن ليسوا مؤرخين فى الأصل، وتركوا للعلماء أن يصنفوا كتاباتهم وشخصياتهم.

ومن هنا يمكن القول أن ابن عاصم قد كتب كتابه «جنة الرضا» بروح الفقيه والقاضى، ويؤكد ابن عاصم – من خلال نظرته العامة، ومنهجة المتبع فى كتابه – على العبرة والعظة التى يمكن أن تستخلص من الأحداث التاريخية؛ وفى هذا الشأن يقول بعد ديباجة دينية... «أما بعد، فإن فى حوادث الأيام، لأولى الأفهام، اعتبارًا، وفى طوارق الليالى، لأرباب الهمم العوالى، اختبارًا...»[٢].

كما أن أهم ما يبلور فلسفة ابن عاصم فى حديثه عن سلبيات عصر سيادة غرناطة قوله عن إدبار الزمان، وأن الخير فى انتقاص..... «والشر فى ازدياد، والصلاح فى اضمحلال، حسبما وعد بذلك الصادق المصدوق، فما الذى يطلب وقد انتصف القرن التاسع، وتباعد بنا عن مظان رحمة الله الوطن الشاسع»[٣]. وهو فى قوله هذا يستند إلى

---

(١) عبدالله جمال الدين: التاريخ الأندلسي تدوينه ومروياته حتى نهاية القرن الثالث الهجري، القاهرة دون تاريخ. ٥٨؛ وانظر ماسبق قوله فى حاشيه رقم (١١) من حواشى البحث تعليقًا على كتابة التاريخ على يد ابن عاصم، وهو لم يكن مؤرخا فى المقام الأول.

(٢) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ٩٤.

(٣) انظر. ابن عاصم: المصدر السابق، ١: ١٠١.

حديث الرسول ﷺ «خير القرون قرنى، ثم الذى يلونهم، ثم الذى يلونهم»(١).

وابن عاصم فى حديثه هذا يتوقف عند القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وكأنه يريد أن يقول إن الخيرية توقفت عن المجتمع الإسلامى فى الأندلس كلية بعده. ومثل هذه الرؤية يغلب عليها التشاؤم؛ ولعل مرد ذلك إلى تعدد سلبيات العصر الغرناطى فى عهد سلطانه الأيسر خاصة، وفى بقية عهود العصر الغرناطى عامة، كما أن الخير فى أمة الإسلام كان ومازال وسيبقى موجودًا – إن شاء الله تعالى – إلى يوم الدين(٢).

كما أن طبيعة المجتمعات الإنسانية – منذ بدء الخليقة – اقتضت الجمع بين كل نقيض من الأبيض إلى الأسود، من الخير إلى الشر، من الصلاح إلى الفساد، وفى هذا الشأن يأتى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(٣).

وإذا كان ابن عاصم – رحمه الله وعفا عنه – قد تغافل عن هذا كله، فمرد ذلك –

---

(١) ورد هذا الحديث الشريف فى سنن النسائى ضمن باب الوفاء بالنذر؛ وهو حديث ينتهى نسبه= =الأعلى إلى عمران بن حصين عن الرسول ﷺ قال: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدرى أذكر مرتين بعده أو ثلاثا...؟» انظر النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب المتوفى ٣٠٣هـ/ ٩١٥م): سنن النسائى المشهور بـ (المجتبى) تحقيق وتعليق: أبو محمد سليمان القاطونى، القاهرة – المكتبة التوفيقية ٢٠١٤م. ص ٧٧٨ باب الوفاء بالنذر حديث رقم ٣٨٠٩.

(٢) استند فى هذا إلى قول النبى ﷺ فيما أورده الإمام البخارى عن معاوية بن أبى سفيان أنه سمع النبى ﷺ يقول «من يرد الله به خيرًا يُفهقه فى الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيًا حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله»، كما استند فى هذا الإطار أيضا إلى حديث النبى ﷺ عن المغيرة بن شعبة أنه قال ﷺ «لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» انظر. الإمام البخارى (شيخ الحفاظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المتوفى (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م): صحيح البخارى، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، القاهرة – دار الاعتصام ٢٠١١، ١٤٥٧ حديث رقم ٧٣١٢، وحديث رقم ٧٣١١.

(٣) قرآن كريم، سورة فاطر، آية رقم ٣٢.

كما سبق القول – إلى خشيته من تعدد السلبيات، وخشيته من سقوط غرناطة معقل المسلمين الأخير فى الأندلس، وقد حدث ما كان يخشى منه.

وعلى الإجمال، فإن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم، فلسفة إسلامية بحتة تركز على استخلاص العبرة والعظة من الأحداث التاريخية، وتفسرها تفسيرًا إسلاميًا، كفقيه وقاضى وعالم دين؛ وينطبق هذا أيضًا على حديثه عن سلبيات العصر الغرناطى من خلال كتابه جنة الرضا، وهو ماسوف يتم توضيحه فى الصفحات التالية:

جوانب من السلبيات الاجتماعية فى الأندلس فى عصر سيادة غرناطة

أولا: فساد الرعية كما يصوره ابن عاصم

سبق الإشارة إلى أن الدافع الرئيسى نحو تأليف كتاب جنة الرضا هو أجواء الفتنة التى سادت غرناطة، ويُحمِّل ابن عاصم مسئولية تدنى الأوضاع فى البلاد على عاتق الحكام والمحكومين على حد سواء، أو الحكام والرعية، ويفسر ابن عاصم أعمال الحكام سلبًا وإيجابًا بطبيعة الرعية ومدى صلاحها، ويقول فى هذا الشأن:- «إن السيرة التى نحمدها منهم، فإنما هى من فضل الله علينا، وأن الشيمة التى نذمها منهم فإنما هى ما اجترحنا من الآثام وجنينا»[١].

ويعتقد ابن عاصم أن ما أصاب مجتمع الأندلس فى غرناطة من تفكك وفرقة إنما مرده إلى ما كسبت أيديهم، وفى هذا الشأن يقول... «فلا شك أن المؤاخذة كانت بسبب تلك الذنوب، وأن الجناية هى التى أوجبت ما طرقنا من الخطوب»[٢] ومؤكدًا أيضا على أن ما أصاب المجتمع والرعية «إنما كان تنبيها من الله على ما عطلنا من

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ١٠٠.

(٢) ابن عاصم: المصدر السابق،٢: ٣٠٤.

حدوده، وإيقاظا من الغفلة عن القيام بحقوقه والوفاء بعهوده»(١).

ويدفعه كل هذا إلى أن يدعو المولى عز وجل قائلًا: ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سبقوا، ونعزم العزم على أمر الله تعالى فى قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(٢).

وهو بهذا الشأن كأنه يستند إلى قول النبى ﷺ: «كما تكونوا يولى عليكم»(٣). ويحمل الرعية (الشعب أو المحكومين) مسئولية ما يحدث من فساد، أو صلاح، وهذا الفساد الذى يعبر عنه بالآثام والذنوب، هو الظلم الذى يصيب المجتمعات الإنسانية والذى يؤدى إلى سقوطها حسب التفسير الإسلامى للتاريخ الذى يؤمن به ابن عاصم(٤)، وهو ماسبق الإشارة إليه، ولعل فى هذا المدخل الذى يعبر عن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم؛ ما يدفع للحديث عن مزيد من سلبيات العصر فى المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة.

ثانيا: سوء الأوضاع السياسية وكثرة الانقلابات

استطاع ابن عاصم أن ينتقد سوء الأوضاع فى عصره، ويجسد كثرة الانقلابات التى حدثت فى عهد سلطانه «الأيسر»؛ فهو ينظر إلى العصر الغرناطى بأنه عصر شدة وأزمات، ويهاجم الإتاوة المدفوعة من ملك غرناطة إلى نصارى إسبانيا قائلًا:

---

(١) ابن عاصم. نفس المصدر، ٢: ٣٠٥.

(٢) ابن عاصم: نفسه، ٢: ٣٠٢؛ والآية الكريمة من سورة آل عمران، آية رقم ١٠٣.

(٣) ابن عاصم: جنة، ١: ١٠٠؛ والحديث المذكور أورده العلامة الهندى فى كتابه كنز العمال. انظر. الهندى (العلامة علاء الدين على المتقى المتوفى ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧ م): كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكرى حيانى، وصححه ووضع فهارسه الشيخ صفوت السقا، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ٦: ٨٩ حديث رقم ١٤٩٧٢ فى باب «فى لواحق الإمارة والخلافة».

(٤) انظر. فى هذا الشأن ما كتبه د. عماد الدين خليل فى الفصل الرابع ضمن كتابه عن التفسير الإسلامى للتاريخ. انظر. عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى، ٢٥٥ – ٣٢٥.

«أن مسالمة هؤلاء النصارى المجاورين، كانت قد انعقدت على إتاوة اقتضاها أزم ذلك الزمان،وشدة لاحقة النفاق...»(١).

وهو فى قوله هذا يصب نقده على الأوضاع السياسية فى مملكة غرناطة؛ ولعل المرجح أنه يقصد – فى نقده هذا – حركة الأمير أبى الحجاج يوسف بن المولى الذى يسميه الكتاب القشتاليون Ibn- Almawla؛ وهو الذى تمكن من خلع «محمد الأيسر» سنة «٨٣٥هـ/ ١٤٣١م» وكان ذلك بمساعدة «خوان الثانى» ملك قشتالة، الذى أرسل إليه ابن المولى يطلب مساعدته على ارتقاء العرش فى مقابل أن يحكم باسمه، ويتعهد بدفع الجزية له(٢).

وقد كان فى ذلك دافعًا لابن عاصم للتوجه إلى الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء بأن يكفى وطنه شر النكبات؛ ويقول فى هذا الشأن: «ونبسط كف الضراعة والاضطرار، فى كف الفتن عن هذا الوطن، وكف الكفار عن هذه الديار، وتيسير الفرج القريب لهذا القطر الغريب، وتسهيل الصعب العسير لهذا الصقع النائى عن الولى والنصير»(٣). وهو فى دعائه هذا ينظر إلى الأندلس على أنها قطر غريب بعيد عمن ينصره، ويقدم له العون، ولعل فى هذا ما يذكر بقول ابن الخطيب عن الأندلس بأنه «قلق المهاد»(٤).

ورغم أن ابن عاصم يتوجه إلى المولى سبحانه وتعالى بالدعاء؛ إلا أن الدعاء هنا قد يكون تعبيرًا عن يأسه من أوضاع البشر حكامًا ومحكومين، فما كان منه إلا أن يلجأ إلى

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، ٢: ٢٧٩.

(٢) محمد عبدالله عنان: وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، مج٢، عدد ١-٢، ١٩٥٤، ٤٠؛ مقدمة كتاب جنة الرضا،١: ١٦، وقد سبق الإشارة إلى انقلاب ابن المولى فى حاشية رقم (١٣).

(٣) ابن عاصم: جنة،٢: ٢٩١.

(٤) جاء فى وصية لسان الدين بن الخطيب لبنيه قوله «ومن رُزق منكم مالًا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع فى العقار...» انظر. المقرى: أزهار الرياض،١:٣٣٤؛ نفح الطيب،١: ٢٦٣.

رب البشر، وفى هذا تعبير عن إيمانه، وثقافته الإسلامية والدينية؛ إذ أن من المعروف أن الدعاء فى الإسلام هو العبادة(١)، وقد لجأ إليه ابن عاصم بعد شعوره بتأزم الأوضاع السياسية، واللجوء إلى النصارى فى إسبانيا، ودفع الجزية لهم، واستنجاد نفر من مسلمى غرناطة بهم استقواءً بهم ضد إخوانهم من بنى جلدتهم ووطنهم ودينهم.

كما استطاع ابن عاصم فى كتابه «جنة الرضا» تصوير ما حدث من ثورة أبى الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر سنة «٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م»(٢) وهو ابن أخت السلطان الأيسر(٣)؛ ولا يفوته أن يوضح موقف المجتمع الغرناطى من الفتن والانقلابات المذكورة، ويبدو هذا واضحًا عند حديثه عن فتنة سنة «٨٥٤هـ/ ١٤٤٩م»(٤) والتى يقول عنها: «... ولذلك العهد ماجت الحضرة بأهلها موجًا، واستشعرت النفوس عظيم الحادثة، وخشيت عاقبة هذه الواقعة، وجعل الله فى قلوب الخاص والعــام، والقريب والبعيد، استقباح هذه الثورة، واســتنكار هذه الفعلة، ولُقن الناس ما تضمنته من أمانى طاغية قشتالة فى تشتيت الكلمة، وتفريق الأمة المسلمة، وضُربت لهم فى ذلك الأمثال، وحَذَّروا من عواقب هذه الأحوال، وناصح الفقهاء فى ذلك الدين الحنيف، والإسلام الشريف، فجزموا بخطر الواقع وحرمته، وثبتوا على الاستمساك بعز الملك وحرمته»(٥).

ثالثًا: تعدد حالات الاعتقال، والنفى خارج البلاد

ارتبطت الانقلابات السياسية فى عهد السلطان الأيسر بحدوث حــالات من الاعتقال، وأحيانا النفى خارج البلاد؛ ومن هؤلاء الذين وقع عليهم الاعتقال «أبو

---

(١) يؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ القرآن الكريم، سورة غافر آية ٦٠.

(٢) ابن عاصم: جنة،١: ٣١١، ٣١٢.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا،١: ٢٢.

(٤) قام بهذه الفتنة المدعو الرئيس إسماعيل. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا،١: ٢٨.

(٥) ابن عاصم: جنة،١: ١٩١.

بكر بن عاصم»(١) والد أبى يحيى بن عاصم موضوع البحث، وصاحب الجنة، وهو يقول فى هذا الشأن: «وأنه كان من قدر الله التمحيص الجارى على أبى، رحمه الله، فى عام أربعة عشر وثمانمائة بالاعتقال المطاول الأمد»(٢). بيد إنه لا يذكر السبب فى اعتقال والده؛ إلا أن المرجح أن سوء الأوضاع السياسية، وكثرة التقلبات، وتعدد خروج الحكام بعضهم على بعض، من الأمور التى تؤدى إلى مثل هذا المناخ السيىء، وقد ترك حادث اعتقال الأب أثرًا سيئًا فى نفس الابن، ويقول ابن عاصم فى هذا الشأن:

«وأنا – ولطف الله متعرف فى كل حال – فى ثقاف مقضى علىَّ لأمد محدود وأجل معدود »(٣) وقد أوضح ابن عاصم فى هذا الشأن أنه آثر الاختفاء فى دار أحد أصحابه فى أعقاب اعتقال والده، واستمر هذا الاختفاء مدة حتى زالت عنه نكبته بفضل الدعاء إلى الله – سبحانه وتعالى – والاستشهاد بقوله عز وجل «أفمن يجيب المضطر إذا دعاه»(٤).

بيد أن المؤسف فى اختفاء ابن عاصم فى دار أحد أصحابه أن الرجل آثر ألا يطلب الغوث عندما أصابته أزمة فى التنفس، حتى لا يشعر به من جاء إلى صديقه من شيوخ العلم، وهو ما يصوره ابن عاصم بقوله: «...واعترانى شَرَقٌ كبير سد مجرى التنفس منى، فشاهدت الموت عيانًا، ولم استجز فضيحة صاحبى...»(٥)؛ وهو ما يعنى أن ابن عاصم كان يفضل الموت على كشف سر من آواه وخبَّأه؛ وليس عندى من تعليق فى

---

(١) سبق التعريف بابن عاصم الأب فى حاشية رقم (١٠) وانظر عنه أيضا مقدمة تحقيق جنة الرضا، ٤٠-٤٣؛ ومن أشهر ما كتبه ابن عاصم الأب كتاب تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام على مذهب الإمام مالك، وقد وقفت على طبع هذا الكتاب فى الجزائر سنة ١٣٢٢هـ على ذمة أحمد بن مراد وأخيه ولعلها كانت أول مرة يطبع فيها الكتاب.

(٢) ابن عاصم: جنة، ٢: ٢٠٣.

(٣) ابن عاصم: المصدر السابق، ٢: ٢٠٤.

(٤) القرآن الكريم، سورة النحل آية ٦٢؛ وقد خطرت الآية الكريمة على قلب ابن عاصم أثناء اختبائه فى بيت أحد أصحابه، فيتضرع إلى الله – سبحانه وتعالى – بها دون أن يتكلم لما أصابه من غُصة وشرق فى حلقه. انظر. ابن عاصم: نفس المصدر، ٢: ٢٥٩.

(٥) ابن عاصم: نفسه، ٢: ٢٥٩.

هذا الشأن سوى أن هذا ما يفعله الفساد والاستبداد بالنفوس، فحال الابن ليس بأحسن من حال الأب، فكلاهما فى الاعتقال سواء إن صحت رواية ابن عاصم.

ومن الشخصيات التى تعرضت للعزل من منصبها أولًا، ثم الاعتقال ثانيًا، كان قاضى الجماعة «أبو القاسم بن سراج»؛ وهو الذى يصفه ابن عاصم بقوله «شيخنا قاضى الجماعة أبو القاسم بن سراج»؛ والذى يقول عنه أثناء ثورة المعروف بابن المول على السلطان الأيسر: «... وقد كانت الفرقة القائمة بأمر هذا الثائر حنقة على شيخنا المسمى –رحمه الله –بأسباب يستدعى تقريرها الملك إذ ذلك العهد عز له...»(١).

وفى قَصه هذا تصوير لما كان يحدث للعلماء نتيجة لتقلبات الأوضاع، وتوثب الحكام بعضهم على بعض؛ بل إن الأمر يزداد سوءًا عندما يشير ابن عاصم إلى اعتقال شيخه ابن السراج، مع القائد ابن كُماشة، أثناء ثورة أبى الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر سنة «٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م» وفى هذا ما يشير إلى موقف سوء قد حضره ابن عاصم فى الدولة اليوسفية وهو... «يوم القبض على القائدين أبى الحجاج يوسف بن كماشة وأبى القاسم بن السراج أعظم الله مثوبتهما»(٢).

وفى هذا ما يعنى أن العلماء والقضاة والقادة أيضا كانوا يتعرضون للعزل، أو الاعتقال مع حدوث الانقلابات السياسية، ومجئ ثائر جديد؛ ولم يكن ابن عاصم نفسه بعيدًا عن الاعتقال حسبما تم الإشارة إليه آنفًا، إذ أن الرجل تعرض – مع سلطانه الأيسر– للنفى خارج البلاد إلى مالقة، فى أعقاب ثورة أبى الحجاج يوسف السابق ذكره، وهذا النفى الإجبارى قد ترك آثاره فى نفس ابن عاصم، فقد كان الرجل يخشى دسائس ومكائد حاشية السلطان الجديد، خاصة بعد اعتقال شيخه أبى القاسم

---

(١) ابن عاصم: جنة، ١: ١٧١؛ وقد جاء التعريف بابن سراج فى مقدمة تحقيق جنة الرضا بما لا يدع مجالًا للتعريف به من جديد. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا، ١: ٤٤–٤٥.

(٢) ابن عاصم: ٢/ ٥٥، ٥٦؛ وابن كماشة يرد ذكره فى الجنة القائد يوسف بن فرج بن كُماشة والمرجح لى أنه كان قائدًا للجيش، ومع توالى الانقلابات والثورات كان يتعرض للعزل والاعتقال والسجن، والسجن والاعتقال من المصطلحات التى استخدمها ابن عاصم نفسه فى الجنة ١/ ٣١٢.

ابن السراج، والقائد ابن كماشة، وقد كان فى ذلك دافعًا لابن عاصم فى الاعتماد على... ما اعتمده أهل كتب الصحيح من التعوذات الواردة فى ذلك عن النبى ﷺ ويضرع إلى... «الله فى استكفاء شر كل ذى شر»(١).

وفى هذا كله ما يشير إلى حالة «التفكك» التى أصابت المجتمع الغرناطى، بما أدى إلى انفصال بعض أجزائه عن بعض، كما هو الحال فى رحيل الأيسر وحاشيته إلى مالقه، وبقاء أبى الحجاج يوسف فى غرناطة مع حاشية جديدة(٢).

وقد يكون هذا التفكك نتيجة لما أصاب المجتمع الغرناطى من «خلل اجتماعى» وشيوع مظاهر القلق والاضطراب، والتناقض بين أبناء المجتمع الواحد(٣)، وخير مثال يعبر عن هذا رأى ابن عاصم فى السلطان أبى الحجاج يوسف الذى قال فيه:

«كنت أراه مائلًا للخير بطبعه، مباعدًا للشر بقوله وفعله، وإنما كنت استثقل بعض أرباب دولته، ممن أتوسم فيه غلًا أو استشعر منه حسدًا»(٤).

---

(١) أشار ابن عاصم إلى وساطته بين السلطان أبى الحجاج، وسلطانه الأيسر فى أعقاب نفيهما إلى مالقة أو خروجهما من غرناطة، وقيام ابن عاصم بسفارة إلى غرناطة للتقريب بين أبى الحجاج والأيسر، وأن ابن عاصم كان يخشى من أرباب دولة أبى الحجاج، من الذين كانوا يسعون إلى إغراء العامة به، وتسليط الرعاع عليه، وهدم ما لديه من أملاك ودور فى غرناطة وأن الله – سبحانه وتعالى – صرف عنه هذا الابتلاء. انظر. ابن عاصم: جنة،١: ١٨٠؛ ٢: ٥٦؛ ومالقة مدينة بالأندلس من أعمال رية على ساحل البحر المعروف بالزقاق. انظر عنها. ياقوت: معجم البلدان، ٥: ٤٣ وغيره من كتب الجغرافيا.

(٢) جاء فى معرفة التفكك لغة بأنه انفصال بعض الأجزاء عن بعض، ويراد بالتفكك اصطلاحًا انهيار وحدة اجتماعية وتداعى بنائها واختلال وظائفها وتدهور نظامها، سواء أكانت هذه الوحدة شخصًا أم جماعة أم مؤسسة أم أمة بأسرها، وهو عكس الترابط والتماسك. انظر عن مصطلح التفكك. معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، إعداد: نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥، ١٦٨.

(٣) يعد القول تجسيدًا لمصطلح «الخلل الاجتماعى» الذى يعبر عن مظاهر القلق والاضطراب والتناقض فى العلاقات الاجتماعية بين أعضائه، سواء أكان مجتمعًا صغيرًا كالأسرة، أم كبيرًا كالأمة بأسرها، أم أكبر وأشمل كالمجتمع الدولى. انظر. معجم العلوم الاجتماعية، ٢٥٤.

(٤) ابن عاصم: جنة، ٢/ ٥٦؛ وقد لعب ابن عاصم دورًا هامًا عندما استتب الأمر للسلطان أبى=

ومثل هذه الجوانب المعبرة عن «التفكك» و«الخلل» تعدان من نتائج سوء الأوضاع السياسية، وتعدد حالات الاعتقال والنفى خارج البلاد، وتكوين حاشية جديدة مع كل ثائر جديد، ورغم أن الحالات المذكورة من اعتقال ونفى تبدو حالات فردية؛ إلا أن ما وصل إلينا من خلال ابن عاصم لايمنع –ترجيحًا– من وجود ماهو أكثر منها، فى ظل تدنى الأوضاع السياسية، وكثرة التقلبات والانقلابات وتداعيات كل هذه الجوانب؛ حتى بات الشعور بالاغتراب النفسى أمرًا لا مفر منه فى المجتمع الغرناطى، وهو ماسوف يتم الحديث عنه فى الجزئية التالية.

رابعًا: الشعور بالاغتراب النفسى

لعل أهم ما يلفت انتباه الباحث فى هذه الجزئية هو أن ابن عاصم قد وقع عليه شيء من سلبيات المجتمع الأندلسى فى العصر الغرناطى؛ وفى عهد السلطان الأيسر تحديدًا، ألا وهو «الاغتراب» الذى يُعرَّف بأنه البعد عن الأهل والوطن(١)، وقد تجرع ابن عاصم مرارة هذا البعد عن الأهل والوطن، عندما أُجبر على ترك غرناطة، والرحيل إلى مالقة فى أعقاب ثورة أبى الحجاج يوسف بن أحمد سنة «٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م» أو ما أسميته سابقا بالنفى خارج البلاد.

والحق أن ابن عاصم قد أفاض فى التعريف بالاغتراب تعريفًا وافيًا يمكن أن يضيف إلى روافده الثقافية رافدًا آخرًا يعتمد على إلمامه بعلم النفس ومعرفته بطبائع البشر، فيما يمكن وصفه بـ «عالم النفس – الفقيه»، ومما أفاض فيه ابن عاصم عن

=الحجاج فى غرناطة، فبالإضافة إلى أنه قام بدور الوسيط فى الصلح بين سلطانه الأيسر وبين أبى الحجاج وأثناء إقامة الأيسر بمالقة؛ فقد استدعاه أيضا أبو الحجاج ليستعمله فى سفارة عنه إلى المغرب، ومع أنه أصبح مقربًا من السلطان الجديد، إلا أنه هذا الوضع لم ينزع المخاوف من قلب ابن عاصم لأنه كان يخشى خصومه من الحاشية الجديدة، وهذا يشير إلى سوء الأوضاع السياسية وأثرها فى وجود التفكك والخلل فى المجتمع الأندلسى فى غرناطة.عن الأحداث المذكورة. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا،١: ٥٧ –٥٨، ابن عاصم: جنة ٢: ٦٥–٦٦.

(١) انظر فى تفسير لفظة «الاغتراب» معجم العلوم الاجتماعية، ٥٠–٥١.

الاغتراب قوله: «..عظم الاغتراب على من قضى به عليه، وسبب ذلك – والله أعلم – كون الإنسان حيوانًا مدنيًا، لا يقدر على الإقامة وحده، ولا تقوم مصالحه على انفراده...» ومضيفًا أيضًا أن الاغتراب «نوع من الانفراد، أنه يحصل بين ناس لا يعرفهم، ويفتقر إلى قوم لا أنس لديهم، ولا موجب لديهم للعطف عليه. وكذلك من حيث من غاب عنهم من أهل، فإنهم قد فقدوا أنسه، وعدموا المصلحة المقتنصة لهم منه، فيشتد عليه أسفهم، ويعظم بفرقته كمدهم»(١).

وبغض النظر عما فى لغته من محسنات بديعية تغلب على أسلوبه؛ إلا أن المدقق لكلماته فى وصف فراق الأهل والولد أثناء وجهته إلى مالقه يدرك مدى ما كان يعانيه ابن عاصم، حتى أنه قال بعد كلام تقدم... «ومودعًا مع أصاغر الذرية قلبى، وقد استصحب غيرى أهله وولده، وإن كان فارق ماله وبلده، إلا مَنْ كان مثلى فإنه ذهب طائشًا لبه، منتزعًا من بين جنبيه قلبه...»(٢).

والمتأمل لكلمات ابن عاصم المستخدمة مابين لبه الطائش، وقلبه المنزوع، يدرك مدى حرقة فراق الأهل والولد، وقد دفعه هذا إلى الاستشهاد بما قاله ابن الخطيب من أشعار فى هذا الشأن قائلًا:

يوم أزمعت عنك طيَّ البعاد ... وعدتنى عن الوداع العوادى
قال صحبى وقد أطلت التفاتى ... أى شىء تركته ؟ قلت: فؤادى(٣)

والرجل هنا ترك قلبه، فكأنه لا شىء يفرق بينه وبين الشخص الميت، والرأى عندى أنها الفتنة وما تفعله فى النفوس، بكل مافيها من استبداد، وأوضاع سوء، وسوء الظن بأرباب السلطان السابق وحاشيته، والشىء نفسه يحدث ويتكرر مع عودة من

---

(١) ابن عاصم: جنة، المصدر السابق، ٢: ١٥٥.
(٢) ابن عاصم: جنة ٢: ١٥٢.
(٣) ابن عاصم: ٢: ١٥٢.

كان سابقا فيما يتعلق بنظرة حاشيته تجاه من أزيح عن الحكم هو وأربابه.. وهكذا دواليك تحدث المأساة دونما إعلاء لمصلحة البلاد.

وأسوأ من الاغتراب فى حد ذاته هو اغتراب النفس من الداخل، وهى فى بلدها ووطنها، وقد شعر بهـذا النوع من الاغتراب من قبل «أبــو بكر بن عاصم الأب» عندمــا تم اعتقــاله ســنة «٨١٤هـ/ ١٤١١م»، وأنشد فى ذلك يقول:

أودعونى تحت الثرى ونسونى　　فمقامى به مُقَـــام طويــــــل
أنا حيٌّ وحــالتى حــالُ ميتٍ　　ليت شعرى هل للخروج سبيل[(١)]

كما أن ابن عاصم الابن نفسه – وصاحب موضوع البحث – قد عانى من الاغتراب بشقيه العام والنفسى، فقد كان يشعر بالغربة بين أبناء وطنه،وهو ماحدث له من خلال تصويره لمعاناته من إغراء العامة به، وتسليط الرعاع على جهته لخراب دوره وأملاكه، وذلك أثناء سفارة قادها من السلطان الأيسر سلطانه، إلى السلطان أبى الحجاج فى غرناطة، مشيرًا إلى ماحدث من العامة والرعاع كان... «عن غل كامل وحسد باطن، والله بالمرصاد، وعند الله تجتمع الخصوم»[(٢)].

وإجمالًا، وعلى أية حال، لم يكن ابن عاصم الأب والابن هما من عانا فقط من الاغتراب، والاغتراب النفسى، فقد شاركهما فى هذه الظاهرة أكثر من شخصية فى عصر سيادة غرناطة[(٣)]؛ بل إن ما ذكرته من تداعيات للأحداث السياسية، يشير إلى

---

(١) ابن عاصم: جنة،٢: ٢٠٣.

(٢) ابن عاصم:جنة، ١: ١٨٠؛ وقد أشار ابن عاصم فى موطن آخر إلى معاناته، وشعوره بالاغتراب فى أعقاب التمحيص الوارد على والده، وأن الله – سبحانه وتعالى– قيد له صديقًا يحمل عنه تلك النائبة، أقام معه سبعة أشهر يقوم بخدمته، وبالطبع لم يذكر ابن عاصم اسم صديقه هذا خشية البطش به من قبل السلطان. انظر. ابن عاصم: جنة، ٣: ٥٧، ٥٨.

(٣) كان إسماعيل بن يوسف، أبو الوليد بن الأحمر – المنتمى إلى الفرع الثانى من الأسرة النصرية، وهو فرع رؤساء مالقة – أحد الذين شعروا بالاغتراب، بل يمكن القول أن ابن الخطيب نفسه كان يشعر به، وهو ما يتضح فى وصيته لبنيه، ووصف غرناطة بأنها وطن قلق المهاد، وفى هذا ما يشير إلى عدم استقراره النفسى.=

إنسان ذلك الزمان كان يعانى من الاغتراب فيما بين غربة النفس، وغربة البدن؛ وكلاهما أسوأ من الآخر؛ فضلا على الشعور بعدم الاستقرار وهو مايدفع إلى حدوث مأساة الأندلس الكبرى، فقد سقطت من الداخل قبل أن تسقط بفعل ما أحاط بها من عوامل خارجية.

خامسًا: سوء الأوضاع الاقتصادية

أشار ابن عاصم فى كتابه جنة الرضا إلى أكثر من صورة تدل على مدى سوء الأوضاع الاقتصادية فى غرناطة؛ ومن أمثلة تلك الصور حادث الجراد عام «٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م»؛ مشيرًا إلى عجز القدرة البشرية عن مواجهة زحف الجراد فى الأماكن الشرقية من الوطن، حتى ظن البعض أن الحدث يعد «آية من آيات الله» وأنه «عقاب مرسل وجند من جنود ربك التى لا يعلمها إلا هو»(١).

ويستطرد ابن عاصم فى بيان آثار زحف الجراد اقتصاديًا؛ مشيرًا إلى تلف الزرع والبذر، وكأن الأرض «لم تنبت فى عامها خضرًا». ولم يكتف ابن عاصم ببيان الزحف الحيوانى المشار إليه؛ بل إنه يوضح سبل مقاومته من خلال رد فعل بعض بلدان غرناطة، كما فعل أهل بسطة، وأهل أشكر، من خلال ما اتخذوه من أخاديد أجبروا فيها الجراد على السقوط فيها طبقا لما أوضحه ابن عاصم تفصيلًا(٢).

=انظر. عبدالقادر زمامة: أبو الوليد بن الأحمر الدار البيضاء ١٩٧٨، ٧٧، ٨٢، ٩٠؛ وقد سبق الإشارة إلى وصية ابن الخطيب فى حاشية رقم (٤٥) وابن الأحمر السابق ذكره هو إسماعيل بن يوسف بن محمد، أبو الوليد بن الأحمر المتوفى سنة «٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م» وهو صاحب مؤلفات كثيرة فى تاريخ الأندلس، ومنها – على سبيل المثال – كتاب نثير الجمان فى شعر من جمعنى وإياه الزمان، والذى قامت بنشره مؤسسة الرسالة بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية.

(١) ابن عاصم: جنة، ١: ٢١٨ أو جنة الرضا، ١: ٢١٨.

(٢) ابن عاصم: المصدر السابق،١: ٢١٨، ٢١٩؛ وبسطة بالاسبانية Baza وتقع إلى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة، وأُشْكَر بالأسبانية Huescar وهى تقع شمال بلدة بسطة، وإلى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة. انظر. حاشية رقم ٥، ٦ للمحقق من كتاب: جنة الرضا، ١: ٢١٨، ٢١٩؛ وذكر الحميرى عن بسطة أنها=

كما يشير ابن عاصم أيضا إلى الجانب السلبى لدى بعض بلدان وطنه فى مواجهة مشكلة الجراد، كما هو الحال عند أهل وادى آش، وأهل بيرة، وكثير من أهل وادى المنصورة، من الذين استكثروا أهلها عظم الحادث، وكثرة أعداد الجراد، فظنوا أنها... «جند الله الذى لا يُدافع، فكادت تستأصل جلَّ الأقوات، ويلحق الأحياء من عدم الطعمة بالأموات، إلا أن لطف الله للجميع متعرف...»(١). وفى المقطع إشارة إلى ما ترتب على زحف الجراد من سوء للأوضاع الاقتصادية، حتى كاد الأحياء يتساوون مع الأموات نتيجة لقلة الأقوات، وكساد الزروع والثمار.

والجدير بالذكر هنا أن ابن عاصم لا ينظر إلى حادث الزحف الحيوانى هذا على أنه من موجبات الذنوب؛ فالأمر قد يكون ظاهرة طبيعية تحدث فى كثير من المجتمعات، بدليل أنه يذكر بعضًا من بلدان غرناطة قامت بمقاومة الزحف المذكور، فى حين نظر إليه البعض الآخر أنه عقاب إلهى؛ ويأتى هذا خلافًا لفلسفة ابن عاصم الذى ينظر إلى أزمة غرناطة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا بأن مردها إلى عقاب الله سبحانه وتعالى، لكنه فى هذا الحادث بعينه يتفق مع رد الفعل الإيجابى ويمتدحه، وهو ما

=مدينة بالأندلس بالقرب من وادى آش، وهى من كور جيان،وهى مشهورة بالمياه والبساتين، وكان أديبها أبو الحسن البسطى يقول لو طبعت على الزهد لحملنى حسن بلدى على المجون والعشق والراحات. انظر. الحميرى (أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم المتوفى ٨٦٦ هـ / ١٤٦١م): كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠، ١١٢ – ١١٣؛ وانظر عن أشكر أيضا ما قاله ابن الخطيب فى ريحانة الكتاب ضمن مشاهداته، وحاشية المحقق رقم (٢) للأستاذ. محمد عبدالله عنان رحمه الله فى ص ٢٩٣. انظر. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبدالله عنان،القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٨١، ٢: ٢٩٣–٢٩٤.

(١) ابن عاصم: جنة، ١: ٢١٨؛ ووادى آش بالأسبانية Gudix وتقع إلى الشرق من غرناطة، وبيرة بالإسبانية Vera وتقع شمال شرقى مدينة غرناطة، أما وادى المنصورة، فهى مجاورة لبيرة إلى الشمال الشرقى من المرية، وبالأسبانية Gueyas de Almanzord. انظر. حواشى التحقيق فى جنة الرضا،١: ٢١٨ حواشى رقم ٤، ٦، ٧؛ وانظر أيضا عن البلدان المذكورة. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، ٢: ٢٩١، ٢٩٢ (بيرة وحاشية رقم ٢ من ص ٢٩١)، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ (مدينة وادى آش وحاشية المحقق رقم ٤ ص ٢٩٤)، وعن وادى آش أيضا يمكن الرجوع إلى. الحميرى: كتاب الروض المعطار، ٦٠٤، ٦٠٥.

يفهم ويستدل من سياق حديثه، مشيرًا إلى لطف الله – سبحانه وتعالى – فى نهاية الحدث وزوال النكبة، ولكن هذا لا يلغى – على أية حال – سوء الأوضاع الاقتصادية فى غرناطة.

ومن المرويات التاريخية التى ذكرها ابن عاصم؛ وتشير إلى سوء الأوضاع الاقتصادية أيضا، حادثة الدراهم المغشوشة، والتى يقول ابن عاصم فى شأنها... «فإن هذه نازلة كبيرة، وفادحة عظيمة، لم يسلم من شرها أحد، ولا أظنه نجا منها فى هذا الوطن بشر»(١). وفى النازلة المذكورة تفاصيل واضحة عن انتشار عملات من الذهب الأبيض المغشوش فى أسواق غرناطة، وفى هذا ما يشير إلى تدليس فى العملة، وأن هذا التدليس قد عم ضرره فى غرناطة ولم يسلم منه أحد.

وفضلًا على ما ذكره ابن عاصم فى هذا المضمار الاقتصادى؛ فإنه يمكن القول أن سوء الأوضاع السياسية من الأمور التى يترتب عليها سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على حد سواء؛ بما يشير إلى أن قلة مرويات ابن عاصم فى هذا الشأن لا تعبر عن حالات فردية أو حوادث فردية؛ فالظروف السياسية هى التى تقود الأوضاع الاقتصادية إلى الأمام أو الخلف، وفى هذا الشأن يقول ابن عاصم منددًا بالاختلاف والفرقة... «وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف»(٢).

سادسا: تفكك النظام الإدارى للدولة والاستخفاف بقوانينها

ارتبط تفكك النظام الإدارى للدولة فى غرناطة بما قاله ابن عاصم عما كانت تحتوية خزانة الدولة النصرية فى غرناطة من كافة النفائس والجواهر والأقراط، والأسلحة والسيوف والحلى والدروع، وكافة ألوان الأمتعة الأخرى... مشيرًا إلى أن كل هذا قد

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ٢١٨.

(٢) ابن عاصم: المصدر السابق، ٢: ٣٠١؛ المقرى: أزهار الرياض، ١: ١٦٤.

«التهبه شواظ الفتنة، والتقمه تيار الخلاف والفرقة، فرُزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله، وتقصير ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلًا عن كله»(١).

وفى النص إشارة واضحة إلى إفلاس خزانة الدولة النصرية فى كافة مقتنياتها؛ ومن المرجح أن هذا الإفلاس المادى قد امتد إلى النظام الإدارى للدولة، والاستخفاف بقوانينها؛ وهنا استعير من كلمات ابن عاصم إحدى نصوصه النقدية نقلًا عن كتابه: «الروض الأريض»؛ والتى يقول فيها ابن عاصم: حدثنى شيخنا القاضى أبو العباس أحمد بن أبى القاسم الحسنى... أن الرئيس أبا عبدالله بن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى عبدالله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل، مما يتوقف عادة على إذن الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبى عبدالله، قال الشريف: فأمضاها كلها له، ماعدا واحدة منها تضمنت نقص عادة مستمرة، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: «لا والله يا رئيس أبا عبدالله لا آذن لك فى هذا لأن ما استقمنا فى هذه الدار إلا بحفظ العوائد»(٢).

ويعلق ابن عاصم على هذا النص بقوله: «فلما تأذن الله تعالى للدولة بالاضطراب واستحكم الوهن بتمكن الأسباب، عُدل عن هذه القواعد الراسخة، واستُخِف بتلك القوانين الثابتة، فنشأ من المفاسد ما أعوز رقعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه، وتعذر فيه الدواء الذى يرجى نفعه»(٣).

ولقد رأيت الإتيان بالنص كاملًا، وعلى نقد ابن عاصم لأوضاع عصره فى تعليقه على النص؛ بما يشير إلى وجود علاقة وثيقة بين الإفلاس المادى للدولة فى خزانتها،

---

(١) ابن عاصم: نفس المصدر، ٢: ٢٤.

(٢) المقرى: أزهار الرياض،١: ٥٩؛ وهو النص الوحيد الذى اعتمدت عليه من كتاب الروض الأريض لابن عاصم، وجاء به المقرى فى أزهاره، ولم يرد فى كتاب «جنة الرضا» لابن عاصم، واستخدمته هنا للدلالة فيما يعبر عن النقد الاجتماعى عند ابن عاصم وذكره للسلبيات ومشاكل المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة.

(٣) المقرى: أزهار، ١: ٥٩، ٦٠.

وبين الإفلاس الإدارى، والتفكك التنظيمى للدولة، والاستخفاف بقوانينها، بحيث يختلط المشروع باللا مشروع، ولعل هذا هو ما أراده ابن عاصم، وهو ما أرجحه دونها أن يُحمَّل نقد الرجل فوق ما يحتمل.

وفى رأيى أيضا أن لفظة «العوائد» الوارد ذكرها فى نص ابن عاصم تشير إلى مجموعة القواعد والقوانين التى تنظم سير الدولة، والتى يصعب على أى مجتمع الاستغناء عنها؛ ومثل هذه القواعد والقوانين تنهار فى فترات الضعف بحيث تسير الأمور وفقًا للأهواء والوساطة والمحسوبية والرشوة، وتصبح هذه العوائد «القواعد والقوانين» مزيفة عاجزة عن تحقيق الاستقرار للمجتمع، وينشأ عن هذا العديد من المفاسد، وهو ما ذكره ابن عاصم فى نصه، كما أن الفتنة والخلاف والفرقة، إذا كان لها أن تلتهم أشياءً مادية فى خزانة الدولة؛ فيكون من الأولى ألا يستقيم النظام الإدارى فى البلاد، فيعانى هو الآخر من التفكك، وعدم تطبيق القواعد والقوانين المعتادة. ولا يخفى على فطنة القارئ الكريم أن ابن عاصم هنا ينتقد بنفسه، ويبدى استياءه من سوء الأوضاع، بما لايترك مجالًا لاستنطاق النص.

سابعًا: التمسح بالدين، واستغلاله للوصول إلى السلطة

هاجم ابن عاصم فى كتابه – وفى أسلوب قصصى شيق – التمسح بالدين واستخدامه كمطية للوصول إلى السلطة والملك؛ وقد بدا هذا واضحًا عند حديثه عن إحدى حوادث الهرطقة والابتداع وهو ما يبدو واضحًا فى حديثه عن قضية الرجل المعروف بيوسف المدجن، وهو الذى ظهرت حركته فى عهد السلطان الأيسر، سلطان ابن عاصم، وينتقد ابن عاصم مسلك هذا الرجل قائلًا عنه: «فقد كان فى ذلك ما يقضى منه العجب من شاهده أو باشره، من رجل لم أعرفه قط ولا فاتحته بكلمة، إلا أنه كان يبدولى من ظاهره أنه بعيد من ترف الحضارة، وعريق فى نسب البداوة، مثل رعاية البهم وإثارة الفلاحة، وما أشبه ذلك، يستظهر مع ذلك السذاجة البارزة فى مسلاخ القحة والاستصحاب لأضعاث من العشب يفرغها

جهلة العوام فى قالب حسن الظن...»(١).

ويشير ابن عاصم إلى حادث مقتله، ويشبهه بوفاة الخليفة هشام المؤيد واختلاف الآراء حوله، ويذكر ما قالت به طائفة فى يوسف المدجن بعد وفاته أنهم «لقوه فى الكهف الفلانى، والغار الكائن بجبل كذا، وأنه أخبرهم أنه خارج عما قريب، فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا...»(٢) وفى قول ابن عاصم ما يشير إلى الهرطقة والابتداع، بيد أنه يذكر ما يعبر عن خطورة هذه القضية بقوله: «فقد كان حالها عظيمًا وخطرها كبيرًا». ويدفعه هذا إلى الإدلاء برأيه فى دولة الموحدين قائلًا: «وهذا النوع الذى استظهر به هذا المدجن من تغطية قصده أولًا للثورة بالصلاح، وإبراز تصرفاته المقضية أخيرًا إلى طلب الملك، فى مسلاخ الانتماء للولاية، هو الذى مُنى به المرابطون من المتسمى بالمهدى القائم بدولة الموحدين، ولذلك كانت هذه الموحدية لا تسامح أحدًا ممن يستظهر بتغيير المنكر فى قالب الديانة»(٣). وفى قول ابن عاصم هذا ما يشير

---

(١) ابن عاصم: جنة، ١: ١٨٦؛ وقد أورد ابن الأزرق هذا الخبر فى بدائعه، مشيرًا إلى أن يوسف المدجن هذا كان يتظاهر بالانخراط فى سلك الصوفية بغية الوصول إلى السلطة. انظر. ابن الأزرق (القاضى أبو عبدالله محمد المتوفى (٨٩٦هـ/ ١٤٦٤م): بدائع السلك فى طبائع الملك، تحقيق: على سامى النشار، بغداد - منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٧٧، ١: ١٢٠.

(٢) ابن عاصم: جنة، ١: ١٨٨، ١٨٩؛ ومن المعروف عن الخليفة هشام المؤيد أنه ظهر رجل يشبهه بعد وفاته باثنتين وعشرين سنة يسمى خلف الحصرى، وادعى أنه هو، وبويع له بالخلافة، وقد ذكر ابن حزم هذا تحت قوله: «أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها»، أما عن شخصية الخليفة هشام المؤيد فهو ابن الخليفة الحكم المستنصر، وهو أشهر من أن يُعرف به فى التاريخ الأندلسى. انظر. ابن حزم (أبو محمد على بن سعيد المتوفى (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): نقط العروس فى تواريخ الخلفاء «رواية الحميدى» تحقيق: شوقى ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج١٣، ج٢، ديسمبر ١٩٥١، ٨٣، ٨٤.

وعن الخليفة هشام المؤيد يمكن الرجوع إلى: ابن عذارى المراكشى: عاش أوائل ق «٨هـ/ ١٤م»: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س كولان و إ. ليفى بروفنسال، بيروت - الدار العربية للكتاب ١٩٨٣، ٢: ٢٥٣ - ٢٥٦؛ ابن عاصم: جنة، ١: ١٨٨ حاشية رقم (١) للمحقق وبها كثير من المصادر التاريخية عن هشام المؤيد خشية الإطالة.

(٣) ابن عاصم: جنة، ١: ١٨٩؛ وفى قول ابن عاصم إشارة إلى مهدى الموحدين محمد بن تومرت=

إلى أن مهدى الموحدين ابن تومرت قد اتخذ من الدين ستارًا له للوصول إلى الحكم والسلطة والقضاء على دولة المرابطين؛ والذى يلاحظ أيضا من خلال نص ابن عاصم هذا أنه يبدى تعاطفًا تجاه المرابطين، وينظر إلى ابن تومرت على انه دعى، وينكر لقب المهدى عليه، وفى موطن آخر يعيب على الموحدين استباحتهم للدماء عقب دخولهم مراكش سنة «١٥٤١هـ/ ١١٤٦م»(١).

والجدير بالذكر هنا أن ابن عاصم لم يكتف بأسلوبه القصصى، بل يبدى رأيه فى الأحداث بشكل واضح، والحق أنى أتفق معه فيما قاله بشأن دولة المرابطين، وتجاسر ابن تومرت «مهدى الموحدين عليهم» فى حين أن حركته لم تكن سوى محاولة للنيل من دولة المرابطين تحت ستار الدين، وهو ما هاجمه ابن عاصم بشدة.

=المتوفى عام «٥٢٤هـ/ ١١٢٩م » وهو الذى عاب على المرابطين ما أسماه بالتجسيم ووصفهم بالمجسمين، مدعيًا فى ذلك الإصلاح الدينى، ولم يكن قصده سوى هدم الدولة فى عز شبابها، وانظر فى هذا الشأن ما كتبه الباحث باسم. دور أعلام الفكر الصوفى فى تدعيم وجود العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب الأقصى خلال القرنين «٥، ٦هـ/ ١١، ١٢م» بحث قيد النشر بحولية كلية الآداب – جامعة بنها – أكتوبر ٢٠١٥، وفيه انتصار لدولة المرابطين وإنصافها من ابن تومرت.

(١) ابن عاصم: جنة، ٢: ٩٣؛ وما ذهب إليه ابن عاصم هنا يتفق مع ما قال به نفر من الباحثين المحدثين من أن الموحدين أقاموا دولتهم على الدم.

انظر. عبدالحليم عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا «دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية»، المنصورة – دار الوفاء ودار الصحوة ١٩٨٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٤.

خاتمـة

وبعد فهذه مجموعة من انتقادات ابن عاصم، وذكره لسلبيات المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة، ولعل أهم النتائج التى يمكن استخلاصها من البحث على النحو التالى:

- أن الرجل – وإن لم يكن مؤرخًا فى المقام الأول - يملك حاسة تاريخية لا يمكن إنكارها، وأن التاريخ كان جزءًا من اهتماماته وثقافاته؛ فهو أشبه بما يسمى «عالم الدين - المؤرخ»، أو «الفقيه – المؤرخ»، كما سبق القول.

- أنه كان على وعى كبير بذكره لسلبيات المجتمع فى الأندلس فى عصر سيادة غرناطة، وإننى لم اعتمد على استنطاق نصوصه التاريخية انتقاصا من وعيه بما يذكره

- انه استطاع أن يعبر عن كثير من جوانب السلبيات متمثلة فى ذكره لحالات الاعتقال والنفى، واستخدام الدين كمطية للوصول إلى الهدف المنشود، فضلا على ذكره لمظاهر من فساد الرعية، وتعدد حالات من الاغتراب، والتفكك السياسى، والخلل الاجتماعى، على النحو المذكور فى متن البحث.

- لعل أهم نتيجة يمكن أن يصل إليها البحث هى أن العلة فى الأندلس جاءت من الرؤساء والطبقة الحاكمة، وهو ما قال به أ. د حسين مؤنس رحمه الله(١).

وأخيرًا فقد سبق لى الإشارة أنه كانت لى محاولة سابقة فى الكتابة عن ابن عاصم، وربما كانت محاولة ناقصة أردت أن أتممها بالكتابة عنه مرة أخرى، منقبا عن جوانب جديدة من سلبيات المجتمع الأندلسى فى عصره.

وأدعو الله أن يهيئ لنا عقولًا وأفئدة وآذانًا واعية نستطيع من خلالها الاستفادة من ماضينًا لخدمة الحاضر والمستقبل، بما يعود بالنفع والخير على وطننا وأمتنا... وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) مقدمة تحقيق أخبار العصر، ٢١.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصدر الرئيسى للبحث

ابن عاصم: أبو يحيى محمد بن عاصم ت «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م».

- جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، ثلاثة مجلدات، تحقيق: د / صلاح جرار، منشورات الجامعة الأردنية، دار البشير، عمان ١٩٨٩.

ثانيا: المصادر

ابن الأزرق: القاضى أبى عبد الله محمد ت «٨٩٦هـ/ ١٤٦٤م».

- بدائع السلك فى طبائع الملك، ج١، تحقيق: على سامى النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٧٧.

الإمام البخارى: محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت «٢٥٦هـ/ ٨٧٠م».

صحيح البخارى، تحقيق: طه عبدالرازق سعد، دار الاعتصام ٢٠١١م.

ابن حزم: أبو محمد على بن سعيد ت «٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م».

- نقط العروس فى تواريخ الخلفاء «رواية الحميدى» تحقيق: د. شوقى ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ١٣، ج ٢، ديسمبر ١٩٥١.

الحميرى: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ت «٨٦٦هـ/ ١٤٦١م».

- كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠.

ابن الخطيب: لسان الدين أبى عبدالله محمد ت «٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م».

- الاحاطة فى أخبار غرناطة، مج ١، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط ٢ مكتبة الخانجى ١٩٨١.

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مج ٢، ط١ مكتبة الخانجى ١٩٨١.

- اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربى، ط٢ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠.

أبو العرب: محمد بن أحمد بن تميم التميمى ت «٣٣٣هـ/ ٩٤٤م».

- كتاب المحن، تحقيق د. يحيى وهيب الجبورى، ط٢ دار الغرب الإسلامى ١٩٨٨.

ابن عذارى المراكشى: عاش أوائل ق «٨هـ/ ١٤م».

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ومراجعة. ج. س كولان وإ. ليفى بروفنسال ٢ ط ٣ الدار العربية للكتاب بيروت ١٩٨٣.

ابن القاضي: أبو العباس أحمد محمد المكناسى: ت «١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م».
- درة الحجال فى أسماء الرجال، ج١، تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور، ط١ المكتبة العتيقة، دار التراث ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
القرآن الكريم: طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٠٧هـ.
المقرى: أحمد بن محمد التلمسانى ت «١٠٤١هـ/ ١٦٣١م».
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: يوسف البقاعى، ج١، ج٧، ج٨، ط ١ دار الفكر ١٩٨٦.
- أزهار الرياض فى أخبار عياض، ج١، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩.
ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ت «٧١١هـ/ ١٣١١م».
- لسان العرب، مج ٣، أعده: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت دون تاريخ
مؤلف مجهول:
- أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق: د. حسين مؤنس، ط ١ الزهراء للإعلام ١٩٩١ (استفدت من مقدمة تحقيق د. مؤنس فقط)
- النسائى: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب ت «٣٠٣ هـ/ ٩١٥م».
- سنن النسائى المشهور بـ «المجتبى» تحقيق وتعليق: أبو محمد سليمان القاطونى، ط٢ المكتبة التوفيقية ٢٠١٤م
- الهندى: العلامة علاء الدين على المتقى ت «٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م».
- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال (١٨ مجلدًا) ج ٦؛ ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكر حيانى، وصححه ووضحه فهارسه: الشيخ: صفوة السقا، ط٥ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
ياقوت الحموى: شهاب الدين أبى عبدالله ت «٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م».
- معجم البلدان، مج ٣، ٥، دار صادر بيروت دون تاريخ.

ثالثا: المراجع العربية

الأهوانى «د. عبدالعزيز»:
- سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ج١، مج ١٦ مايو ١٩٥٤.

حسين مؤنس «د»:
- التاريخ والمؤرخون «دراسة فى علم التاريخ» دار المعارف ١٩٨٤.
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط١ دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد ١٩٦٧.
خير الدين الزركلى:
- الأعلام، ج٧، ط٨ دار العلم للملايين ١٩٨٩.
سيدة كاشف «د»:
- مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه، الخانجى ١٩٧٦.
شكيب أرسلان «الأمير»:
- رواية آخر بنى سراج للكاتب الفرنسى «الفيكونت درشاتو بريان»، ويليها خلاصة تاريخ الأندلس فى سقوط غرناطة، ويليهما كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.
عادل يحيى عبد المنعم «د»:
- النقد الاجتماعى عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين «ق٣-٩هـ/ ٩- ١٥م» رسالة ماجستير غير منشورة آداب الزقازيق ١٩٩٦.
- دور أعلام الفكر الصوفى فى تدعيم وجود العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب الأقصى خلال القرنين ٦٢٥هـ/ ١١، ١٢ م، بحث قيد النشر بمجلة كلية الآداب – جامعة بنها، أكتوبر ٢٠١٥.
عبدالباسط عبدالمعطى «د»:
- اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٨١.
عبدالرحمن على الحجى «د»:
- التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، ط ١ دار الاعتصام ١٩٨٣.
عبدالقادر زمامة:
- أبو الوليد بن الأحمر، الدار البيضاء ١٩٧٨.
عبدالحليم عويس «د»:
- أوراق ذابلة من حضارتنا «دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية» ط ٣ دار الوفاء ودار الصحوة ١٩٨٩.
عبدالله جمال الدين «د»:
- التاريخ الأندلسى «تدوينه ومروياته حتى نهاية القرن الثالث الهجرى»، القاهرة دون تاريخ.

عماد الدين خليل «د»:

- التفسير الإسلامى للتاريخ، ط ٥ دار العلم للملايين ١٩٩١ .

قاسم عبده قاسم «د»:

- الرؤية الحضارية للتاريخ، ط ٢ دار المعارف ١٩٨٥ .

محمد عبدالله عنان:

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس، ط ٤ مكتبة الخانجى ١٩٨٧ .
- وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، مج ٢، عدد ١-٢ ١٩٥٤ .

محمد بن محمد مخلوف:

- شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ المطبعة السلفية ومكتبتها على نفقة دار الكتاب العربى، بيروت دون تاريخ.

معجم العلوم الاجتماعية:

- تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، إعداد: نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .

رابعًا: المراجع المترجمة

- لويس سيكودى لوثينا:
- وثائق عربية غرناطة، منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، ط١ مدريد ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

خامسًا: المراجع الأجنبية

Conde (J. A):

- History of the Dominon of the Arabs Spain.,Vol. 3., Translated by Mrs Jona Foster., London.

Lus Seco De Lucend Paredes:

- Una Hazaña De Ibn Asim Identificada., Al-ndalus., Vol., XVIII Madrid – Granada 1953.

Miguel Alcantra:

- Historai De Granada., T. 3., Granada 1906.

Rachel Arie:

- L'es pagne Mauslmane Au temps des nasrides., "1232-1422" Paris 1973.

المجلة التاريخية المصرية ٥٣ (٢٠١٩) ١٧٣ـ٢٠٢

التطور الاقتصادي في بروسيا من سنة (١٨١٥ - ١٨٧٠م)

سُعاد محمد عمر الجفال[١]

ملخص

تركز هذه الدراسة علي موضوع التطور الاقتصادي في بروسيا في الفترة ١٨١٥- ١٨٧٠ وتكتسي أهمية في تاريخ بروسيا لأنها المرحلة التي سبقت تحقيق الوحدة الألمانية وقد مرت بروسيا خلالها بعدة مراحل سياسية واقتصادية، فكانت إحدي أهم الدويلات الألمانية آنذاك وكانت تتمتع بكيان مستقل سياسيا، وقد تعرضت للهجوم من قبل جيش نابليون بونابرت عندما هاجم الأراضي الألمانية والنمساوية مع بداية القرن التاسع عشر محققا إنتصارات كبيرة وقد خسرت بروسيا أمامه عسكريا في أكثر من موقعة في سنة ١٨٠٦ وسنة ١٨٠٧ هذه الهزائم دفعتها إلي الدخول في حلف مع روسيا سنة ١٨١٣ للتخلص من الهيمنة الفرنسية وقد نجحت في ذلك ويدأ دورها الاقتصادي والسياسي في الظهور بشكل كبير فتمكنت من ضم تلك الأراضي الواقعة حولها إليها، ثم بدأ التطور الاقتصادي فيها بشكل كبير عندما قامت بتأسيس اتحاد جمركي عرف باسم زولفرين وجمعت فيه عدد كبير من الولايات الألمانية ووضعت له قوانين تنظيمية مما أدي إلي تطور صناعي كبير في بروسيا بشكل خاص وكان هو نواة وحدة اقتصادية جمركية للبلاد كما أعتبر

---

(١) محاضر فى التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طرابلس - ليبيا.

حجر زاوية في تحقيق الوحدة السياسية فيما بعد.

كان لاندلاع ثورة ١٨٤٨ إنعكاس علي بروسيا مما أدي بملكها إلي إتخاذ تدابير سياسية حاسمة منها تشكيل برلمان ومن ثم الدعوة الي تحقيق الوحدة الألمانية خاصة بعد أن أصبح أوتو فون بسمارك مستشارا لبروسيا وقاد عملية تحقيق الوحدة بعد عدة حروب مع كل من الدنمارك والنمسا وفرنسا وانتهت بانتصار الألمان سنة ١٨٧١ وإعلان وحدتهم.

Abstract

This study scrutinizes the political and economic developments in Prussia in the period 1815-1870. This period is important because it preceded the realization of German unity and during this period Prussia passed through several political and economic changes. Prussia was attacked by the army of Napoleon Bonaparte at the beginning of the nineteenth century and was defeated which forced Prussia to enter into an alliance with Russia in 1813 to be liberated from the French domination, this ended the war. Then economic development started in it when it established a customs union known as Zollverein and gathered in it a large number of German states and put in place regulatory laws for them, Enormous economic development started with several reforms of the economic sectors which considered a cornerstone in achieving political stability. The revolution in 1848 had accelerated the path of reforms till achieving the German unity led by Otto von Bismarck who entered into several wars with Denmark, Austria and France and ended with the victory of Germany in 1871 and .declaring the unity

*

* *

توطئة

يتناول هذا البحث بالدراسة مرحلة هامة من تاريخ بروسيا الاقتصادي والسياسي من بداية القرن التاسع عشر منذ أن كانت بروسيا واحدة من أهم المدن والدويلات الألمانية الغير موحدة آنذاك وكانت تتمتع كغيرها بكيان وسلطة مستقلان في أغلب الأحيان، وقد مرت بمراحل سياسية واقتصادية متباينة خلال الفترة موضوع الدراسة والتي سوف تركز علي تلك الأوضاع والمراحل المختلفة التي عبرتها حتي الوصل إلي الوحدة الألمانية، ثم دراسة وعرض للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بصفة خاصة إبان إعلان الوحدة الألمانية في إطار تنظيم مؤسسات الدولة تحت سلطة المستشار أوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck.

بروسيا قبيل قيام الوحدة الألمانية

بروسيا هي إحدي المدن والدويلات الألمانية الصغيرة، وكان بعضها يتبع النمسا - إمبراطورية الهابسبورج - وبعضها يتمتع بالاستقلالية، وبلغ عددها أكثر من ٣٠٠ في سنة ١٦١٨م وهي السنة التي بدأت فيها حرب الثلاثين عاما في أوروبا، ولكن تلك الدويلات أخذت تنضم إلى بعضها البعض حتى وصلت في سنة ١٨١٥م إلى حوالي ٣٨ ولاية فقط[(١)].

الخريطة التالية توضح عدد الولايات الألمانية وتوزيعها في بداية القرن التاسع عشر[(٢)]:

---

(١) شوقي عطا الله الجمل وعبد الله إبراهيم ورباب سلام: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، القاهرة - دار الثقافة للنشر والتوزيع (د. ت)، ٢: ٦٦.

(٢) PUTZGER, Historischer Weltatlas, Georg Westermann, 1976, p. 94.

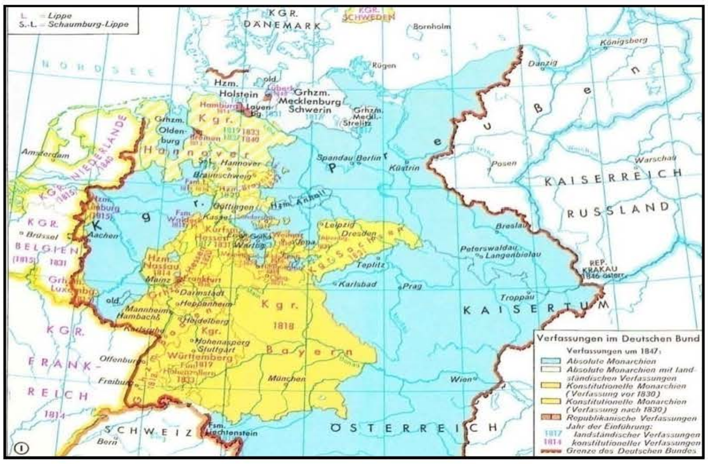

ولإيضاح الوضع العام في هذه المنطقة خلال فترة الدراسة هذه لابد من تسليط الضوء علي الوضع السياسي والعسكري في وسط وجنوب أوربا خلال الفترة موضوع البحث، فقد شهدت أوروبا مع بداية القرن التاسع عشر مرحلة الحروب النابليونية التي شنها الامبراطور نابليون بونابرت امبراطور فرنسا ضد كل من بريطانيا والنمسا وروسيا وقد أسفرت عن انتصارات كبيرة حققها في حروبه تلك، كما نجح في السيطرة علي بعض الأراضي الألمانية وتحديدا تلك التي تقع بين الحدود النمساوية ونهر الراين بموجب معاهدة ليونفيل Luniville سنة١٨٠١، التي وقعها نابليون مع دول التحالف الثاني والذي كان يضم كل من بريطانيا والنمسا وروسيا[1]، ويبدو أن هذه المعاهدة كان لها أثر كبير علي مستقبل الدويلات الألمانية وأدت بطريقة غير مباشرة إلي السير نحو الوحدة الألمانية.

فقد قام نابليون بعملية سياسية تنظيمية تتعلق بالدويلات الألمانية إثر توقيع تلك المعاهدة، فبعد أن كانت كثيرة العدد وكل واحدة منها تتمتع بكيانها ودستورها

---

(١) ميلاد المقرحي: تاريخ أوروبا الحديث ١٤٥٣ – ١٨٤٨، بنغازي – منشورات جامعة قاريونس ١٩٩٦م، ٣٣٣.

ونظامها الخاص بها، عمل علي تقليص عددها لتصبح حوالي ٣٨ دويلة، ثم جعلها تتبع مباشرة لكل من بروسيا وبافاريا (الألمانيتان) والنمسا ووضع علي رأس السلطة في كل منها أمراء موالين له[١]، ومن هنا بدأ دور بروسيا السياسي يظهر بشكل جلي.

مواكبة لهذه التطورات السياسية واصل نابليون حروبه في المنطقة حيث توغل في المناطق الخاضعة للنمسا وجيرانها حيث كان الهدف الرئيس منها هو هزيمة بريطانيا وحلفائها لذلك عمل في البداية علي محاربة كل حلفاء بريطانيا وإخضاعهم لسلطة فرنسا، وفعلا نجح في تحقيق جزء من أهدافه تلك عندما دخل في نزاع مع النمسا مما أضطر الأخيرة إلي الدخول في تحالف جديد عرف باسم التحالف الثالث الذي كان يضم كل من بريطانيا والنمسا وروسيا ثم انضمت إليهم السويد ونابولي، ولم يكن نابليون وحده هذه المرة فقد وقفت إلي جانبه الجيوش البلجيكية وبعض الدويلات الألمانية وحدثت مواجهة بحرية خسرها الفرنسيون لصالح الانجليز في موقعة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥م، وبالرغم من تلك الهزيمة تمكنت فرنسا من تحقيق انتصارات في معارك برية عدة أهمها السيطرة علي جنوب ألمانيا بعد معركة أولم Ulm سنة ١٨٠٥م، وفي السنة التالية ١٨٠٦م قام نابليون بتأسيس اتحاد الراين الموالي لفرنسا والذي كان يتكون من مجموعة من الولايات الألمانية[٢].

هذا التغير الذي جاء لصالح فرنسا جعل بريطانيا تعيد ترتيب سياستها من جديد وبدأت في تأسيس تحالف جديد للوقوف في وجه المد الفرنسي في وسط أوروبا، وهو ما عرف باسم التحالف الرابع والمتغير الجديد هنا هو انضمام بروسيا إلي هذا التحالف.

كانت بروسيا طرفا محايدا في بداية هذا الصراع الحربي بين فرنسا وبريطانيا وبقيت

---

(١) عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعي: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، بيروت - دار النهضة العربية للطباعة والنشر (د. ت)، ٩٩.

(٢) هربرت فشر: نابليون، نقله إلي العربية محمد مصطفي زيادة ومحمد نوفل، القاهرة - دار المعارف ١٩٥٨م، ١٦٢؛ ميلاد المقرحي: تاريخ أوروبا الحديث، ٣٦٦ - ٣٦٧.

كذلك حتي قام نابليون بعبور أراضيها أثناء ملاحقته للجيوش النمساوية دون إذن من ملكها الذي اعتبر هذا العمل إهانة له ولدولته واعتداء علي كيانها، لذلك قام بإجراء اتصالات مع القيصر الروسي من أجل الانضمام إليهم في حربهم ضد فرنسا[١]، ومن هنا اتفقت كل من بريطانيا وروسيا وبروسيا والسويد علي الوقوف في وجه نابليون، وأطلق علي تحالف هذه الدول اسم التحالف الرابع.

عندما تقدمت الجيوش الفرنسية باتجاه بروسيا لم تتمكن الأخيرة من الوقوف في وجه الجيوش الفرنسية وخسرت أمامها في موقعة يينا Jena في أكتوبر سنة ١٨٠٦م ونجح نابليون إثر ذلك في الوصول إلي مدينة برلين والسيطرة عليها[٢]، ثم أعقب ذلك بنصر جديد ضد الجيوش الروسية والبروسية معا في معركة فريدلاند Fridland في سنة ١٨٠٧م، أجبرت هذه الانتصارات روسيا علي توقيع صلح مع فرنسا عرف باسم صلح تلسيت Tilsit في يوليو ١٨٠٧م وكان من ضمن بنود هذا الصلح تسليط عقوبات شديدة ضد بروسيا، ويمكن القول أن أسوأ ما تعرضت له بروسيا هو اقتطاع أجزاء من أراضيها وتحديدا في المقاطعات الشرقية والغربية وتكوين مملكة من تلك الأراضي أطلق عليها اسم مملكة وستفاليا Westphalia[٣]وقد عين نابليون أخاه جيروم ملكًا عليها وبهذا يكون التحالف الرابع ضد فرنسا قد انهار تمامًا[٤].

كانت فرنسا تسعي لتحقيق هدف أكبر من الانتصارات العسكرية ويتمثل ذلك الهدف في تدمير التجارة الانجليزية في أوروبا وفرض حصار تجاري عليها، الأمر الذي سيؤدي إلي تدهور الأوضاع الاقتصادية فيها بشكل كبير، غير أن سياسة فرنسا

---

(١) رعد مجيد العاني: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر الصراع والتحالفات، عمان - الأردن - دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ٢٠٠٨م، ٤٠؛ عبدالعزيز نوار وآخر: أوروبا من الثورة الفرنسية إلي الحرب العالمية الثانية، ١٠٤.

(٢) رعد مجيد العاني: المرجع السابق، ٤١.

(٣) فشر: نابليون، ١٧٠، ١٧٢.

(٤) المقرحي: تاريخ أوروبا الحديث، ٣٣٧.

في أوروبا وحروبها المختلفة لم تفسح لها المجال لتحقيق هذا الهدف.

إن الحرب الروسية الفرنسية هي بداية النهاية للنفوذ الفرنسي في وسط أوروبا وبداية ظهور الدول الحديثة فيها، فقد أدي توغل الجيوش الفرنسية داخل روسيا إلي إضعاف فرنسا هذا من جانب ومن جانب آخر أدي إلي ظهور الشعور الوطني لدي الروس وبقوة مما دفعهم إلي الدفاع عن بلادهم وقيامهم بالهجوم علي القوات الفرنسية في يناير سنة ١٨١٣م، ثم تقدموا وتمكنوا من السيطرة علي عدة مناطق كان خاضعة للفرنسيين في بروسيا وبعض المناطق الأخرى.

هذا التغير في ميزان القوي جعل بروسيا تدخل في تحالف جديد مع روسيا في فبراير ١٨١٣م ممن أجل التخلص من السيطرة الفرنسية، وبدأت في تحرير أراضيها وفعلا تمكنت بروسيا من التخلص من الهيمنة الفرنسية، وفي الوقت نفسه بدأ الشعور القومي لدي السكان الخاضعين لحكم بروسيا وغيرها من الدويلات الألمانية في الظهور وبقوة إبان هذه المرحلة الزمنية[١].

ومن هنا بدأ دور بروسيا يبرزمن بين الولايات الألمانية الأخري من الناحية السياسية والاقتصادية. وقد أخذت قوتها تزداد في الفترة التي واكبت مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م حيث تحصلت علي أجزاء من ساكسونيا إضافة إلي بعض الأجزاء الأخرى بالقرب من نهر الراين وهكذا اتسعت الرقعة الجغرافية لبروسيا[٢]، كما بدأت الصناعة في التطور وهو ما انعكس علي الاقتصاد الداخلي لهذه الولاية، في المقابل كانت تتمتع النمسا بقوة سياسية وعسكرية آنذاك، ونجحت بعد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م في تشكيل مجلس يتولى شؤون الدويلات الألمانية يتبعها مباشرة وكانت سلطته بشكل صوري فقط أُطلق عليه اسم

---

(١) المقرحي: المرجع السابق، ٣٤٢.

(٢) SCHULZE, HAGEN, Kleine Deutsche Geschicht, München: Germany, 1996,P91.

(ديت Diet)، أما من يدير الأمور بطريقة عملية فيه فقد كانت النمسا[١]. ونجح مترنخ – المستشار النمساوي – في السيطرة على الأوضاع الداخلية خاصة في منطقة بوهيميا وغيرها من المناطق الخاضعة له، وفرض طوقًا جديدًا على أهم نواحي الحياة خاصة السياسية منها. ومع أن بروسيا لم تكن في قبضته وتمتعت بقوة لا بأس بها، غير أنها كانت قوة على النمط القديم لمقومات الدولة، وشيئًا فشيئًا بدأت تسير نحو التطور والتكتل[٢]، وفي هذا الإطار نجحت بروسيا في أن تكون عضوا في الرابطة الألمانية التي تم التوقيع علي تأسيسها في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥م إلي جانب النمسا ومجموعة من الولايات والمدن الألمانية التي أصبح عددها حوالي ٣٤ ولاية و٤ مدن حرة[٣]في هذه المرحلة التاريخية، كما ضمت هذه الرابطة كل من ملوك بريطانيا والدنمارك وهولندا وكانوا أعضاء بها بصفتهم ولاة علي بعض المقاطعات الألمانية[٤].

وتجدر الإشارة إلي أن السكان كانوا يتركزون بشكل كبير في كل من بروسيا والنمسا أكثر من باقي المدن والولايات الألمانية الأخرى[٥]. ولم يكن الاختلاف بين الولايات يقتصر علي التوزيع السكاني فقط بل كان أيضا يشمل التنظيم السياسي فعلي سبيل المثال بروسيا لم يكن لها دستور حتي سنة ١٨٤٨م بينما كانت بعض الولايات الأخرى تمتلك دستورا تم وضعه علي غرار الدستور الفرنسي[٦].

---

(١) عبد الفتاح أبو علية وإسماعيل أحمد ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، المملكة العربية السعودية - دار المريخ للنشر ١٩٩٣م، ٣١٨.

(٢) هربرت فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم وديع الضبع، القاهرة – دار المعارف (د. ت)، ٢٠٠-٢٠١.

(٣) HARDTWI,Wolfgang und Helmut Hinze, Deutsche Geschichte in Quellen und Darstellung , Band 7 VomDeutschen Bund ZumKaiserreich 1815 -1871, Philipp Reclamjun, Stuttgart,1997, P34.

(٤) SCHLZE, Kleine Deutsche Geschicht,P91.

(٥) EPKENHANS, Michael, Geschichte Deutschland von 1648 bisheute, Stuttgart, 2008, P40.

(٦) EPKENHANS, Geschichte Deutschland.., p40.

وبما أنه لم يكن هناك مظلة واحدة لهذه الولايات، فقد تأخرت نسبيًا في التقدم والتكنولوجيا، فكان هناك تعدد العملات والرسوم الجمركية المتباينة، علاوة على أن مراكز الثروة مبعثرة، وزاد من صعوبة الموقف عدم وجود شبكة مواصلات جيدة، كل تلك العوامل مجتمعة أدت إلي عدم وجود قوة صناعية وتجارية واستمر هذا الوضع حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر(١).

دور بروسيا نحو الوحدة الألمانية

يعتبر النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو عصر القوميات والتكتلات السياسية في أوروبا، وأضحت هذه المميزات تمثل قيمة الدولة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. ومن المعروف أن معظم الدول الأوروبية استطاعت تنظيم صفوفها والانضواء تحت زعامات قوية، وكان السياسيون في ألمانيا يرون أن لديهم قدرات تؤهلهم لتأسيس دولة قوية، وبالتالي سعوا حثيثا للوصول إلى هذه المرحلة حتى يكون لها موقع ووزن بين القوى الكبرى آنذاك، ومما حفزها أكثر هو نجاح إيطاليا في تحقيق وحدتها على يد فكتور إيمانويل Victor Emanuel سنة ١٨٧٠م(٢).

ويمكن القول أن بداية تبلور وتطور القومية التي ظهرت في أوروبا والتي أدت إلي ظهور دول مثل إيطاليا وألمانيا إلي حيز الوجود قد بدأت تظهر بقوة في مطلع القرن التاسع عشر خاصة في السنوات التي سبقت ظهور ما عرف بثورة الأحرار سنة ١٨٤٨م وما صاحبها من دعوات إلي التحرر من السيطرة الأجنبية لبعض الدول

---

(١) محمد أحمد: الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، دمشق - كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٢٠٠٨، ٢١٠.

(٢) محمد أحمد: من عصر النهضة الأوروبية حتى ثورة المعلومات قراءة في التاريخ والحضارة الأوروبية، دمشق - دار بعل ٢٠٠٩، ٢٦٠.

الكبرى علي الدويلات الصغيرة(١). وفيما يتعلق بألمانيا يمكن القول أن سنة ١٨٠٦م هي بداية ظهور القومية الألمانية بشكل واضح، وتعرَّف القومية بأنها «الشعب الذي له تاريخ مشترك وخلفية ثقافية ويتحدث نفس اللغة»(٢).

وتجدر الإشارة إلي أن العداء الذي نشأ ما بين الولايات الألمانية وفرنسا حول تحديد مناطق النفوذ بينهما في منطقة الراين كان من بين أحد الأسباب التي أدت إلي ظهور القومية الألمانية(٣).

بالرغم من أن مصطلح ألمانيا كان موجودًا منذ سنة ١٧٨٩م، إلا أنه لم يكن لها كيان سياسي موحد مستقل وكما سبقت الإشارة فإن معظم الولايات الألمانية لم تقم بدور كبير في هذا الوقت مثلما فعلت بروسيا والتي تبوأت مكانة قوية بفضل حِنكة ملوكها الذين كانوا ينتمون إلى أسرة الهوهنتزلرن(٤)، خاصة فيلهلم الأول الذي أصبح الأمير الحاكم في بروسيا سنة ١٨٥٨م ثم أصبح ملكا عليها في سنة ١٨٦١(٥).

لقد نشأت بروسيا علي يد آل الهوهنتزلرن الذين سيطروا علي أراض واسعة كما اشتروا اراضي لتوسيع ممتلكاتهم وبدأت تأخذ الشكل السياسي وعرفت في البداية باسم ناحية براندبورغ وفي سنة ١٧٠٣م تغيرت تسميتها إلي الملكية(٦)، وقد عمل أمراء بروسيا على جمع كل الولايات تحت لواء واحد، وكان عملًا دؤوبًا بدأ منذ سنة ١٨١٨م بتأسيس اتحاد جمركي زولفرين Zollverein بفضل جهود وزير المالية

(١) هانز كوهن: عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقي، القاهرة – مؤسسة سجل العرب ١٩٦٤م، ٣٥، ٣٩.

(٢) إدوين دانبوغ: تاريخ العالم، ترجمة حميد علي بوشعيلة وفوزي درويش وعادل عبو، البيضاء – ليبيا – جامعة عمر المختار ٢٠٠٧م، ٣٥٩.

(٣) EPKENHANS, Geschichte Deutschland , P42.

(٤) محمد أحمد: من عصر النهضة ٢٦١.

(٥) EPKENHANS, Geschichte Deutschland , P45, 47.

(٦) نورالدين حاطوم: تاريخ الحركات القومية، بيروت – دار الفكر الحديث ١٩٦٧، ١: ٣٨.

البروسى ماسن Massen، وأضحى هذا الاتحاد مركزًا جذب إليه بقية الولايات على مر السنين التالية، ويعود ذلك إلي القوانين التي وضعت لتنظيم هذا الاتحاد حيث تضمنت بنوده إلغاء الضرائب المفروضة علي البضائع التي يتم تداولها بين الولايات المنضوية تحته، هذا النظام أدي إلي تطور صناعي في تلك الولايات خاصة بروسيا التي كانت أراضيها تحتوي علي كميات كبيرة من المعادن، علاوة علي ذلك كان هذا الاتحاد نواة وحدة اقتصادية جمركية[١]، وقد وضع البروسيون في اعتبارهم أن حجر الأساس للوحدة السياسية يتمثل في الوحدة الاقتصادية[٢].

شهدت بروسيا وبعض المدن الألمانية اندلاع ثورة خلال سنة ١٨٤٨م علي غرار الثورات التي قامت في بعض الدول الأوروبية الأخرى وقد تزعمها الأحرار للمطالبة بدستور جديد وإدخال إصلاحات حقيقية لصالح الشعب، وبدأت تلك الثورة بمظاهرات كبيرة تحولت إلي صدامات عنيفة ودموية بين الشعب والجيش البروسى، وهو ما دفع بالملك فريدريك فيلهلم الرابع ملك بروسيا إلي الاستجابة لمطالب الشعب ووعد بإنشاء برلمان كما وعد بالعمل علي تحقيق الوحدة الألمانية[٣].

أدت هذه التطورات بالملك البروسي إلي عقد مؤتمر في مدينة فرانكفورت لدراسة الأوضاع المتفاقمة ومحاولة إيجاد مخرج من تلك الأزمة، وقد تم تشكيل برلمان كان أول أعماله وضع نظام جديد يكفل حق الاقتراع العام للجميع، علي أن يعقبه تشكيل برلمان تأسيسي يقع علي عاتقه وضع دستور ليس علي مستوي بروسيا فقط ولكن لألمانيا الموحدة، واستكمالًا لهذه الخطوات تولت الجمعية الوطنية مهمة الدعوة إلي تحقيق الوحدة الألمانية بدعم من الأمراء الألمان، وقد حالفها الحظ في البداية ودفعهم ذلك إلي عرض التاج الألماني علي الملك البروسي فريدريك الرابع ولكنه رفض عرضهم بحجة

---

(١) عبدالرحمن عبدالرحيم: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، القاهرة – مصر ١٩٩٥م، ١٩٧.

(٢) فشر: تاريخ أوروبا...، ص٢٠١، ٢٠٢؛ أبو علية وآخر: المرجع السابق، ٣١٩.

(٣) عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعي: أوروبا من الثورة الفرنسية، ٢٢٦.

أن الأمراء والحكام الألمان لم يكن لهم دور في هذا العمل ولم يقدموا له هذا التاج،، كما كان يعلم أنه بقبوله التاج سيدخل في مواجهة مباشرة مع النمسا. وعلى ما يبدو أن البروسيين لم يكونوا مستعدين بعد للدخول في حروب وكان ذلك سببا في فشل قيام الوحدة الألمانية في هذه المرحلة الزمنية(١).

تسارعت بعدها الأحداث خاصة وأن النمسا بدأت تشعر أنها ستفقد مكانتها وسيطرتها على الولايات الألمانية إذا نجحت بروسيا في تحقيق الوحدة الألمانية، لذلك اتبعت سياسة تهدف إلي ترسيخ سلطتها هناك ومحاولة استقطاب أكبر عدد من الولاة والحكام الألمان وبناء علي ذلك وفي سنة ١٨٥٠ أصبحت القوى السياسية في الأراضي الألمانية مقسمة إلى قسمين بفضل سياسة النمسا تلك، الأول يؤيد بروسيا والثاني يقف إلى جانبها، ونجحت الأخيرة في فرض شروطها على بروسيا(٢)خاصة إثر الاضطرابات التي وقعت في منطقة هس Hess-Gassel. ورغم قبول فيلهلم فريديرك ملك بروسيا بالشروط المجحفة والتي أبرزها عودة سيطرة النمسا على المنطقة من خلال إحياء الديت الألماني القديم، إلا أن بروسيا لم تقف مكتوفة الأيدي، خاصة وأنها حظيت برجل ذو حنكة سياسية وذكاء هو أوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck، الذي ظهر على مسرح الأحداث منذ سنة ١٨٤٩م عندما أصبح ممثلًا لبلاده في المجلس النيابي للولايات الألمانية، ثم عضوًا في مجلس فرانكفورت وقد ساعدته دراسته للمحاماة وعمله في نفس المجال كثيرًا في وظيفته الجديدة(٣).

وقد لمس ملك بروسيا كل ذلك لديه لذلك قام بتعيينه سفيرًا له في روسيا أولًا، ثم سفيرًا في باريس حتى سنة ١٨٦٢م، ليعيده إلى البلاد ويسند إليه رئاسة الوزراء

---

(١) المرجع السابق، ٢٢٧.

(٢) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، القاهرة - دار الفكر العربي: القاهرة ٢٠٠٠م، ٣٢٨.

(٣) عبد العزيز نوار، وعبد المجيد نعنعي: أوروبا من الثورة الفرنسية، ٢٧١.

في تلك السنة[١].

أدي وصل بسمارك إلي منصب مستشار ملك بروسيا سنة ١٨٦٢م إلي قيامه بالاهتمام بمختلف النواحي لبناء بروسيا حيث اهتم بالجانب العسكري وقام في هذه السنة بفتح باب التجنيد امام الشباب لأداء الخدمة العسكرية وهو جزء من برنامج استيعاب الشباب في مؤسسات من شأنها أن تقدم خدمات كبيرة لبروسيا حيث يمكنهم أدائها في سنة واحدة، كما أدخل تعديلات علي خدمة الاحتياطي العسكري التي كانت سنتين فقام بزيادتها إلي أربع سنوات وكانت هذه الإجراءات قد قدمت نتائج إيجابية ساهمت في تقوية الجيش البروسي[٢].

كما كان بسمارك يدرك خطورة الوضع الذي تمر به البلاد لذلك وضع هدفا محددا وعمل علي تحقيقه ألا وهو تحقيق الوحدة الألمانية، وكان يعي تمامًا أن هذا يعني الدخول في حروب مع بعض الدول الأوروبية المجاورة، خاصة تلك التي تفرض سيطرتها على بعض المقاطعات والولايات الألمانية.

كان هدف بسمارك محددا وهو إجبار دول الجوار علي احترام بلاده وكان ذلك كفيلا بإثارة العديد من الأزمات والحروب التي كان يتوقعها والتي بدأت فعلا مع الدنمارك وانتهت بانتصاره علي فرنسا والتي سوف يتم الحديث عنها فيما يلي:

الحرب ضد الدانمارك ١٨٦٤م

بدأت الخطوات الأولي لهذه الحرب بعدما اتفقت بروسيا والنمسا من أجل إعلان الحرب ضد الدانمارك، وكان الهدف منها السيطرة على مقاطعتي شلزويج وهولشتاين،

---

(١) حسن أفندي توفيق العدل: رحلة حسن أفندي توفيق العدل ١٨٨٧ـ ١٨٩٢م، دراسة محمد صالح عرب، إعداد عبد المنعم محمد سعيد، القاهر – مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٨م، ١٩٩ – ٢٠٠.

WELTGESCHICHTE der NEUZEIT, Herausgegeben von der Lexikonredaktion des Verlages F. A. Brockhaus in Zusammenarbeit mit Gernot Dallinger und Hans-Georg Golz, bpb, Mannheim, 2006, p.124.

(٢) نور الدين حاطوم: تاريخ القرن التاسع عشر، ٣٤.

بدأت الحرب وظهر فيها التفوق البروسي والنمساوي جليا وتحقق لهما ما أرادا، فهُزمت الدانمارك، ووقعت معهما اتفاقية جاستين، وبموجبها أصبحت شلزويج تحت الإدارة البروسية، بينما سيطرت النمسا على هولشتاين، وهذه الوضعية لم تكن لترض بسمارك الطامح إلى الوحدة، ولكنه قبِل بالأوضاع مؤقتًا حتى يحين دور النمسا في استخلاص ما يريد منها[١].

الحرب ضد النمسا ١٨٦٦م

اتخذت بروسيا خطوات عملية لتأكيد تبعية مقاطعة شلزويج لها والتأكيد علي أن ما استولت عليه هو جزءًا منها فعليًا، فباشرت بحفر قنال يربط بحر البلطيق ببحر الشمال، وكان الهدف من وراء هذا العمل زيادة تحدي النمسا ودفعها نحو الصدام المسلح معها، وقد نجحت في ذلك إذ أثارت النمسا فعلا لأنها رأت في هذا العمل زيادة قوة الأسطول البحري البروسي، وهذا ما أراده المستشار البروسى بالتحديد، أي أن تبدأ النمسا بإثارة المشاكل ضده لكي يخوض ضدها حربًا عادلة من وجهة نظره، واستكمالًا لجهوده في نفس الإطار وجه أنظاره نحو إيطاليا لكي يضمن ولائها وحيادها في آنٍ واحدٍ، ودعمه في هذا التوجه فون مولتكه القائد الأعلى للجيش البروسي.

جاء إعلان الحرب كنتيجة نهائية لجهود بسمارك السابقة وقد وقفت دويلات ألمانيا الجنوبية فى صف النمسا بموجب الحلف القائم بينهما، ولكن حنكة بسمارك وقوة الجيش النظامي الخاضع له جعلت الحرب تنتهى في (٧) سبعة أسابيع فقط، وبانتصار بروسيا في موقعة سادوا Sadowa. ثم تدخلت فرنسا لعقد وساطة بين الطرفين، وتوج هذا الانتصار بإعلان وحدة شمال ألمانيا[٢]، بعد أن كانت تقف على الحياد في البداية،

(١) عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعي: أوروبا من الثورة الفرنسية، ٢٧٢.

(٢) فايز صالح أبو جابر: التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، عمان – الأردن – دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، ١١٢.

غير أن انتصار بروسيا دفعها إلى القيام بتلك المبادرة لكي لا تسمح لبسمارك باستثمار هزيمته للجيش النمساوي. وكانت أبرز بنود ذلك الصلح قد تركزت في المحافظة على سلامة الأراضى النمساوية عدا البندقية، والاعتراف للبروسيين بتأسيس اتحاد شمال الراين، والموافقة على حل الاتحاد الجرماني الذى كانت تعتمد عليه النمسا كثيرا في التدخل في الشؤون الداخلية للولايات الألمانية(١).

ولابد من الإشارة هنا إلى أن النمسا هي التى طلبت من فرنسا التوسط بينها وبين بروسيا، وعلي الرغم من موقف قوى بسمارك القوي إلا أنه وافق على الشروط السابقة وهو تكتيك ذكى منه، لأنه أراد قهر النمسا وتحجيم نفوذها في الولايات الألمانية ولم يسع قط إلى إذلالها، كما أراد أن يضم أكبر عدد من الولايات تحت جناح بروسيا، وأخيرا كان هذا القبول بداية العمل من أجل الوقوف في وجه فرنسا(٢).

الحرب مع فرنسا ١٨٧٠م

إثر المكاسب الكبيرة التي حققها بسمارك لبروسيا، لم يبق أمامه سوى عقبة واحده ألا وهي فرنسا، خاصة وأن الأخيرة كانت تعارض تحقيق توحيد الولايات الألمانية تحت راية واحدة خوفا على مصالحها وسلامة أراضيها.

لقد عمل بسمارك على ترك زمام المبادرة في إعلان العداء مع فرنسا في يد الأخيرة وبدأ يعمل علي ذلك وساعدته الأحداث كثيرًا وتحديدًا عندما أرادت فرنسا ضم بعض الأراضي الألمانية الواقعة على نهر الراين إلى سلطتها، ثم وفي خطوة متقدمة طالبت بضم بكل من لوكسمبورغ وبلجيكيا إلي سلطتها، وقوبلت هذه المطالب بالرفض من جانب بسمارك فما كان من فرنسا إلا المبادرة باحتلال لوكسمبورغ، وخوفا من تأزم الموقف في أوروبا نتيجة هذه التطورات تم عقد

---

(١) محمد أحمد، من عصر النهضة الأوروبية، ٢٦٩.

(٢) ميلاد المقرحي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، ليبيا – الجامعة المفتوحة ١٩٩٥م، ١٩٨.

مؤتمر في لندن سنة ١٨٦٨م حيث خرج بعدة توصيات أهمها أن لوكسمبورغ - موضوع النزاع - يجب أن تكون منطقة حياد بين بروسيا وفرنسا وهذا ما لم تقبله الأخيرة، ومما زاد في تعقيد الأمور بالنسبة لفرنسا هو إعلان تحالف بين إتحاد الشمال الألماني وبعض ولايات الجنوب، ووجدت فرنسا نفسها وحيدة في صراعها مع بروسيا، بينما بسمارك نجح بفضل قوة تأثيره من كسب حياد النمسا وبريطانيا أما روسيا فقد كانت حليفته[١].

ومما زاد في تلبد الجو بين ألمانيا وفرنسا ما كان يجرى في إسبانيا من مشاكل حول العرش، ففي سنة ١٨٦٨م عندما تنحت الملكة إيزابيلا عن العرش ليعتليه الأمير ليوبولد Leopold سليل أسرة الهوهنزلرن، وهو ما رفضته فرنسا رفضا باتا لسببين رئيسين هما: الأول أن هذا المنصب وبهذه الطريقة ماهو إلا قوة إضافية لبروسيا ومعناه شيئا واحدا فقط هو ازدياد تهديدها لفرنسا، والثاني أنه من ناحية أخرى يؤدى إلى تغيير ميزان القوى في المنطقة وقلب التوازن الأوربي[٢]، وكلاهما ضد مصلحة فرنسا وهو ما دفع إمبراطورها ووزير خارجيتها إلى التحرك لمنع وصول ليوبولد إلى العرش[٣]، وحدثت مشاورات مع سفير بروسيا لدى فرنسا حول هذا الموضوع، وطلبا منه أن يبلغ الملك وبسمارك بضرورة التراجع عن الموافقة على هذا الأمر، ويبدو أن الملك تأثر بموقف الفرنسيين خاصة بعد مقابلته سفيرهم لديه، وظهر ذلك في البرقية التي أرسلها إلى مستشاره يوضح فيها أن ليوبولد راسله من أجل تنازله عن العرش هو يوافقه الرأي وأن المقابلة مع السفير الفرنسي سادها جو طيب، وما إن استلم بسمارك الرسالة حتى قرر نشرها في الصحف، ولكن مع بعض التعديلات التى تظهر بأن السفير الفرنسي تطاول على ملك بروسيا وكأنه يهينه[٤]، وكان هذا كفيلا

---

(١) هربرت فشر: تاريخ أوروبا، ٢٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ٢٨٦.

(٣) محمد أحمد: من عصر النهضة الأوروبية، ٢٧٤.

(٤) جيفرى برون: المدنية الأوربية فى القرن التاسع عشر ١٨١٥ - ١٩١٤م، ترجمة محمد أحمد على،

بإثارة روح العداء لدى الفرنسيين واعتبروها إهانة بالغة، وإن رد اعتبارهم لا يكون إلا بالاقتصاص من البروسيين عن طريق الحرب، وهو ما أقره مجلس الوزراء في يوليو ١٨٧٠م[١]، وتم إعلان الحرب ضد بروسيا التي كانت مستعدة لها من قبل، والدليل على ذلك تقدم جيوشها بسرعة كبيرة داخل الأراضي الفرنسية[٢]، وحققت انتصارات متتالية، أنهتها بهزيمة القوات الفرنسية في معركة سيدان sedan الفاصلة والتي سقطت على إثرها الامبراطورية الفرنسية، ولكن هذا لم ينه الحرب لأن الحكومة الجديدة (الجمهورية الفرنسية الثالثة) أعلنت استمرارها فى مواجهة بروسيا، ولكن ذلك لم يغير من الوضع شيئا فقد واصل جيش بسمارك التقدم ووصل إلى ضواحي باريس التي سقطت في أيديهم في يناير ١٨٧١[٣]بعد حصار دام حوالى أربعة أشهر وتم تنصيب حكومة جديدة للبلاد.

إعلان الوحدة الألمانية

إثر تجاوز عقبة فرنسا أصبح الطريق الآن مفتوحا أمام بسمارك لإعلان مشروعه الكبير الذى ناضل من أجله كثيرا، ولتدعيم جهوده تلك أخذ في إجراء محادثات مع كل الأمراء الألمان عارضا عليهم فكرة الوحدة، والتي قدمها إليهم في شكل نظام اتحادي ووافق هؤلاء على المشروع، علي أن يكون الاتحاد في الشئون الخارجية والعسكرية وأن تكون السلطة العليا في يد القيصر الألماني، إلا أنه من حق كل ولاية الاحتفاظ بسيادتها الكاملة فيما يتعلق بالشئون الداخلية[٤].

القاهرة - دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٦م، ١٠٧.

WELTGESCHICHTE der NEUZEIT, P.P 124.

(١) عبدالعزيز نوار وعبد المجيد نعنعي: أوروبا من الثورة الفرنسية، ٢٨٢.

(٢) عبدالحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ - ١٩٦٠م، بيروت - دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٤، ٤١.

(٣) ميلاد المقرحى: تاريخ أوروبا، ٢٠١.

(٤) شوقى الجمل وآخرون: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ٧٠.

وعلى هذا الأساس اجتمع الأمراء والملوك الألمان فى قصر فرساى versaille بباريس في يناير ١٨٧١م وأعلنوا قيام الإمبراطورية الألمانية وبايعوا فيلهلم الأول – ملك بروسيا – إمبراطورا عليها(١)، وأصبح عدد ولاياتها فقط (٢٥) خمس وعشرون ولاية بالإضافة إلى الألزاس واللورين(٢).

والخريطة التالية توضح ألمانيا في سنة ١٨٧١م سنة إعلان الوحدة الألمانية(٣).

أما فيما يتعلق بفرنسا فقد وقعت معاهدة مع ألمانيا عرفت باسم معاهدة فرانكفورت فى مايو ١٨٧١م خسرت بموجبها فرنسا كثيرا، حيث تعهدت بدفع غرامة مالية تقدر بـ ٥ مليارات فرنك تسدد على دفعات تستغرق خمس سنوات وكضمان لتنفذ فرنسا هذا الشرط تبقى فرنسا الشمالية تحت سيطرة الألمان، كما تنازلت

---

(١) أبو جابر: المرجع السابق، ١١٢.

(٢) WELTGESCHICHTE der NEUZEIT, P.P 124.

(٣) BIESINGER, JOSEPH, A. Germany: A Reference Guide from the Renassance to the present, Facs on File PublishingNew York, 2006, p. 793

عن مقاطعتى الألزاس واللورين إضافة إلى مدينة متز[١].

الأوضاع العامة في بروسيا ١٨٧٠م

ترتب علي نجاح بسمارك في توحيد ألمانيا العديد من التغيرات والتطورات السياسية والاقتصادية داخل بروسيا وألمانيا وذلك لكي تستطيع ألمانيا مواكبة الدول الأوروبية الأخرى سعت إلي العمل والتركيز علي الأوضاع الداخلية المختلفة.

١. الأوضاع السياسية

عاشت بروسيا أوضاعا سياسية تكاد تكون مستقرة إثر حروبها في أوروبا وتحقيق الانتصارات المنشودة، ومما دعم هذا الاستقرار وضع دستور للبلاد، وقد اشتمل على بعض المبادئ التي اعتبرت حرة آنذاك والمتبعة في إنكلترا، ثم أنشئ مجلس للنواب أطلق عليه اسم الرايخستاغ (يمثل الشعب)، الذى ينتخب أعضائه عن طريق الاقتراع العام لمدة خمس سنوات[٢]، وإلى جانبه وجدت هيئة أخرى ولكنها أعلى منه، تمثلت في مجلس البندسرات الذى تولى رئاسته المستشار الألماني، وبلغ عدد أعضائه إثنان وأربعون عضوا يمثلون ولايات الاتحاد[٣].

والجدير بالملاحظة هنا هو أنه بالرغم من أن هذا النظام يبدو في ظاهره حكما برلمانيا، ولكن الحقيقة غير ذلك، بمعنى أن الإمبراطور كانت له سلطات أوسع من البرلمان، فعلى سبيل المثال كان يمتلك سلطة واسعة فى تعيين كبار الموظفين في الاتحاد الألماني وعلى وجه الخصوص في مجلس البندسرات، وبعض الشئون الداخلية الأخرى، وكذا الحال بالنسبة للشئون الخارجية إذ منحه الدستور حق تمثيل الدولة

---

(١) هربرت فشر: تاريخ أوروبا، ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) عبدالرحيم عبدالرحمن: التاريخ الأوروبي، ٢٠١.

(٣) هربرت فشر: تاريخ أوروبا، ٢٧٧، ٢٧٨.

كتوقيع المعاهدات والاتفاقيات مع الدول الأخرى(١).

إن هذا الوضع السياسي في البلاد يبدو نتيجة طبيعية لتسلسل الأحداث، فبروسيا هي من تقدم وقاد حركة الاتحاد، علاوة على أنها تمثل ثلثى سكان البلاد، ثم جاء أحد أبنائها - بسمارك - يحمل الأفكار والأساليب لتحقيق تلك الغاية، فبمجرد إعلان الاتحاد أنتخب الملك البروسي كإمبراطور، وتم تعيين بسمارك كمستشار(٢)، فدخلت الأساليب السياسية البروسية والهيمنة العسكرية من أوسع الأبواب في نظام الدولة الجديدة.

ومع ذلك عمل هذان المجلسان جنبا إلى جنب لصالح البلاد فى مظهر أوتوقراطي أكثر من أي نظام آخر، وعملت السلطة السياسية على مراقبة كل ما يتعلق بنظام وأمن البلاد كالصحافة وحرية التعبير، وقد حاول بسمارك من خلال هذه الإجراءات السيطرة علي مقاليد الأمور كلها في يده خاصة بعد أن طالب الأحرار الوطنيون الألمان مزيدا من الحريات وتحديدا حرية الكلام والتعبير إلي جانب حرية الصحافة والتجارة غير أن بسمارك لم يوافق علي ذلك وفرض قيودا عليها سنة ١٨٧٨م بحيث تخضع كل المؤسسات لسيطرته(٣)وهنا سؤال يطرح نفسه كيف تعامل الألمان مع هذا النظام؟

في هذه المرحلة كانت تسود الروح الوطنية لديهم، وكان التوجه فى تشجيع ودعم الجهاز الحاكم لتصل البلاد إلى موقع الصدارة بين الدول الأوروبية على مختلف الأصعدة، فكان الاحترام والالتزام التام بالنظام، وإطاعة القوانين بشكل كبير، هي الأمور التي تحرك المواطنين الألمان.

---

(١) محمد أحمد: الحضارة الأوروبية، ٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) نورالدين حاطوم: تاريخ الحركات القومية يقظة القوميات الأوروبية - الوحدات القومية، دمشق - دار الفكر، ١٠٩.

(٣) جيفري برون: المدنية الأوروبية، ١١٠.

وأصبحت بروسيا مركز ثقل سياسي في أوروبا، حيث عُقد في برلين سنة ١٨٧٨م مؤتمر عُرف باسم المدينة (مؤتمر برلين)، وتم التباحث فيه حول كيفية وضع برنامج دولي لتسوية الأوضاع والمناطق المتنازع عليها ضمن أراضي القارة الأوروبية وكذلك مناطق الصراع في أفريقيا.

٢. الأوضاع الاقتصادية

أصبحت البلاد تنعم بالرخاء واعتمدت وارداتها على ما تدره الجمارك والضرائب خاصة تلك المتعلقة بالاستهلاك، فكانت هنالك ضرائب عدة منها المفروضة على الملح والتبغ والبيرة وغيرها[١]، وتجدر الإشارة أن هذه الأموال لم تكن كافية لتغطية نفقات الحكومة مما دفع ببسمارك إلى زيادة الرسوم الجمركية سنة ١٨٧٩م، كما فرض زيادة في الضرائب المقررة على المنتجات الزراعية بحلول سنة ١٨٨٥[٢].

كما اتجه اقتصاد ألمانيا نحو الصناعة والتصدير وخاصة سنة ١٨٨٠، وظهرت مراكز صناعية مهمة كتلك في المنطقة الواقعة في أحواض الرور، والتي شهدت نشاطًا ملحوظًا لشركة دندل الفرنسية - الألمانية، حيث تركز نشاطها في استخراج الكوك، كما مارست صناعة الحديد والفولاذ في اللورين[٣]، ونجحت بروسيا في احتلال المركز الثاني اقتصاديًا عالميًا بعد بريطانيا سنة ١٨٨٠م من حيث صناعة وتصدير الآلات الصناعية، ولكن ما إن جاءت سنة ١٩١٣م حتي أصبحت تحتل المركز الأول تليها الولايات المتحدة الأمريكية ثم بريطانيا.

أما فيما يتعلق بصناعة الصلب فقد كانت المنافسة شديدة بين ألمانيا وبريطانيا في هذا المجال خاصة خلال الفترة ١٨٨٠م - ١٨٩٠م ففي البداية وحتي سنة ١٨٨٤م كان

---

(١) نور الدين حاطوم: تاريخ الحركات القومية، ١١٣.

(٢) جيفري برون، المدنية الأوروبية، ١١٠، ١٤٨.

(٣) محمد أحمد: الحضارة الأوروبية، ٢٢٢، ٢٨١.

الإنتاج الألماني لا يتعدى نصف ما تنتجه المصانع البريطانية، ولكن هذا الوضع لم يستمر حيث تمكنت ألمانيا من زيادة إنتاجها بحيث تجاوزت صادراتها الإنتاج البريطاني بما نسبته ٢٠٪ ولم يقتصر الأمر علي صناعة الصلب فقط بل تعداه إلي الصناعات القطنية بحيث تضاعف حجم الصادرات الألمانية في مقابل تراجع واضح للصادرات البريطانية خلال الفترة الزمنية نفسها(١).

ثم اقتحمت مجال التجارة البحرية وأخذت تنافس بريطانيا فيها، التي بدأت تخشى من هذا النشاط، خاصة وأن رجال الأعمال الإنجليز بدأوا يستخدمون السفن الألمانية في شحن بضائعهم عن طريق ميناء هامبورغ(٢)، كما نشطت الحركة التجارية بين البلدين، فكان الألمان أهم المستوردين للمنتجات البريطانية(٣).

٣. الأوضاع الاجتماعية

شهد المجتمع الألماني زيادة واضحة في عدد السكان فبينما كان عددهم في سنة ١٨٠٠م يبلغ حوالي ٢٣ مليون نسمة ازداد بشكل سريع ليصل في سنة ١٨٧١م إلى أكثر من ٤٠ مليون نسمة وبذلك أصبحت ألمانيا في المرتبة الثانية أوروبيًا بعد روسيا من حيث عدد السكان، واستمرت هذه الزيادة ليبلغ تعدادهم مع حلول سنة ١٩١٠م ما يقارب من ٦٥ مليون نسمة(٤)، وفيما يتعلق بتركيبة المجتمع الألماني فإنه يعتبر مجتمعًا طبقيًا حيث انقسم إلى عدة فئات يأتي في مقدمتها الوزراء والارستقراطيين وتشمل هذه الطبقة كبار رجال الصناعة وأصحاب المصارف وبالرغم من قلة عددهم بالنسبة لعدد السكان الكلي أنهم شكلوا طبقة في مجتمعهم، يأتي بعدهم أصحاب

(١) جيفري برون: المدنية الأوروبية، ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) جيفري برون: المرجع السابق، ١٣٢ - ١٣٣.

(٣) إسماعيل نوري الربيعي: تكوين أوروبا السياسي المعاصر، دار أساريا للطباعة والنشر: الزاوية - ليبيا، ٢٠٠١، ٢٤.

(٤) WINFRIDHALDER, InnenpolitikimKaiserreich 1871-1914, Wissenschaftliche-Buchgesellschafte, Darmstadt - Deutschland, 2003, P.30.

الموارد المالية المتوسطة وشكلوا ما يسمي بالطبقة الوسطي، ليأتي في آخر القائمة الفقراء وأصحاب الدخل المحدود وهم الطبقة الفقيرة.

وفي مجال التعليم كان هناك اهتمامًا منذ ما قبل قيام الوحدة الألمانية من قبل ملوك الدويلات الألمانية بنشر التعليم وفي هذا الإطار قام فيلهلم الثالث بتأسيس جامعة برلين سنة ١٨١٠[1]، وقد كانت مكانا لمخاطبة الشعب وبعث للأفكار التي تخدم البلاد مثل تشجيع العمل وتحقيق الاتحاد بين جميع المناطق الألمانية.

والجدير بالذكر أنه بالرغم من النجاح في تحقيق الوحدة الألمانية إلا أن بعض العراقيل ضلت موجودة منها علي سبيل المثال المسألة الدينية حيث تألفت الدولة من مجموعات دينية مختلفة مثل الكاثوليك واللوثرية والبروتستانت وبدأت المشكلة تظهر في كيفية إحداث توازن بين كل هؤلاء ولتحقيق ذلك قام بسمارك في ١٨٧١ــ١٨٧٥م بوضع الحالة المدنية تحت الإشراف المباشر للدولة.

عمل بسمارك جاهدا علي تنظيم الحياة الاجتماعية في ألمانيا ومنذ سنة ١٨٩٠م بدأت ألمانيا تتمتع بنظام اجتماعي متميز ومتقدم عن باقي دول أوروبا عندما أدخل بسمارك لأول مرة نظام التأمين الاجتماعي (التأمين ضد المرض/ التأمين ضد الشيخوخة/ التأمين ضد الحوادث)، كما ظهرت إلي الوجود النقابات والجمعيات التعاونية كمؤسسات حققت مكانة مرموقة في المجتمع الألماني[2].

السياسة الاقتصادية الخارجية

بعد أن نجح بسمارك في جمع الدويلات والإمارات الألمانية تحت راية واحدة، محققًا الوحدة، واضعًا دستورًا ونهجًا تسير عليها، أخذ في رسم السياسة الخارجية لبلاده وفق المصالح الألمانية.

---

(١) نورالدين حاطوم: تاريخ القرن التاسع عشر في اوروبا والعالم، دارالفكر-دمشق ١٩٩٥م، ٢: ٣١.

(٢) نور الدين حاطوم: تاريخ القرن التاسع عشر، ٦٢-٦٣.

أ – تجاه أوروبا

ركز النظام الحاكم الألماني سياسته حول نقطة واحدة رئيسية ألا وهي إثبات قوة ألمانيا، وفرض آرائها السياسية وتوجهاتها على باقي الدول الأوروبية، لذلك عمل بسمارك ونظامه على نهج سياسة متوازنة مع باقي دول أوروبا الكبرى بصفة خاصة، فكانت فرنسا تحتل مكانة كبرى في سياستهم إن لم تكن هي مركز الاهتمام، لأنه عقب خسارتها لمقاطعتي الألزاس اللورين كان الجميع يعلم أنها لن تسكت عن هذا الأمر طويلا ولم يقف أمامها سوى تنامي القوة العسكرية الألمانية(١)، علاوة على الإهانة التي لحقت بها والمتمثلة في دفع غرامة مالية، ومن هذا المنطلق كان بسمارك يسعى إلى عزلها سياسيًا لإرضائها ولكن بعيدًا عن بلاده، وحتى لا تلتفت إلى مشاكلها التي مازالت مفتوحة معها، وليجعلها تركز على أعمال جديد، وهو ما دفعه إلى عرض تونس عليها في مؤتمر برلين الأول١٨٧٨ م، وإبداء نوع من المرونة في المسألة المصرية ضد الإنكليز، ولكن في نفس الوقت لم يبد أية عدائية ضد الأخيرة، بمعنى عمل على إرضاء الطرفين في آن واحد(٢).

أما بريطانيا فكان ساسة ألمانيا يسعون إلى إيجاد نوع من التكافؤ في العلاقة معها، لذلك ساندوها عندما أعلنت ضم قبرص إليها، كما وقفوا على الحياد نحو التدخل الانكليزي في مصر كما سبقت الإشارة، وكان هناك نوع من التقارب الشديد بينهما وصل إلى عرض توقيع تحالف بينهما سنة ١٨٩٥م من قبل تشمبرلين وزير المستعمرات الإنكليزي آنذاك، إلا أن الجانب الألماني لم يستجب لهذا الاقتراح لاعتبارات عدة أهمها عدم الدعم البريطاني لهم في حروبهم التي خاضوها قُبيل إعلان

---

(١) إسماعيل نوري الربيعي وآخر: تكوين أوروبا، ١٦.

(٢) جلال يحي: تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، الازاريطة – الاسكندرية – المكتب الجامعي الحديث ١٩٩٩م، ٣٢٢.

الوحدة[١]، ولكن هذه العلاقة شهدت نوعًا من التوتر عندما أرادت ألمانيا تنفيذ مشروع خط سكة حديد برلين - بغداد ورأت فيها بريطانيا تهديدًا مباشرًا لمصالحها.

وفيما يتعلق بالنمسا فقد نظر إليها الألمان على أنها الحليف الدائم لهم، ودخلوا معها في اتفاقيات عدة، بينما تميز الموقف تجاه روسيا بالحذر وهو ما دفع بسمارك إلى توقيع معاهدات مع بعض الدول الأوروبية، هي في واقع الأمر دفاعية أكثر من أي شيء آخر، بمعنى أنه نجح في تكوين خط أوروبي في مواجهة روسيا إذا ما تحركت عسكريًا ضد أي جبهة داخل القارة الأوربية، ومع ذلك فقد دخل معها هي الأخرى في حلف، ونتيجة لهذه الجهود لم تنجح روسيا سوى في ضم فرنسا إلى جانبها فقط في حلف ثنائي تم التوقيع عليه سنة ١٨٩١م[٢]. وفي الوقت ذاته لم يعر ايطاليا اهتمامًا بالغًا في البداية، لأنها لم تكن تشكل أهمية لألمانيا، ولم تدخل معها في معاهدات إلا في مرحلة متأخرة عن باقي الدول الأوربية وخاصة في المرحلة التي خسرت فيها معركتها في عدوى ثم ضياع تونس من بين يديها لاحقًا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن السياسة الألمانية الخارجية قد طرأ عليها نوع من التغيير نتيجة للمتغيرات التي شهدتها القارة الأوروبية وانطلاق معظم دولها نحو السيطرة الخارجية خاصة في قارة افريقيا، وما واكبها من منافسة شديدة فيما بينهم، ومن هنا رأي بسمارك وتحت ضغط من الألمان الذين يتبنون أفكارا استعمارية مشابهة لأولئك الأوروبيين وبعد أن أطمئن إلي القوة التي حققها لبلاده أنه حان الوقت لإحداث تغيير في سياسته الخارجية ومجاراة باقي الدول الأوروبية وتحديدا في انتهاج سياسة التوسع وإضافة مناطق نفوذ جديدة إلي ألمانيا، ويمكن القول أن هذه المرحلة قد بدأت سنة ١٨٨٥م في الفترة التي عُقد فيها مؤتمر برلين الثاني.

ومجمل القول أن السياسة الألمانية بتوجهات بسمارك نجحت في تحقيق مآربها في أوروبا

(١) إسماعيل نوري الربيعي وآخر: تكوين أوروبا، ٢٥.

(٢) المرجع نفسه، ٢١.

عن طريق العمل الدائوب أجل الحفاظ على المكانة المميزة والقوية لبلادهم، وأن تكون هي محور السياسة الأوربية، وهذا ما ميز الألمان، وجعلهم يقيمون نوع من توازن القوى في أوروبا طيلة فترة حكم بسمارك، ولكنه أخذ في الانهيار عقب تركه السلطة السياسية.

ب – تجاه الدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية طرفا رئيسيا في الأحداث السياسية السائدة آنذاك نظرا لارتباطها بالعديد من التطورات السياسية مثل المسألة الشرقية وخسارتها لممتلكاتها لحساب بعض الدول الأوروبية مثل فرنسا وبريطانيا وغيرهما، وجاء الاهتمام الألماني بها متأخرًا نوعًا ما، وهذا أمر طبيعي بسبب تركيز جهودهم داخل أوروبا.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن سياساتهم تجاه الدولة العثمانية لم تحركها دوافع استعمارية ظاهرة للعيان، بل كانت من منطلق اقتصادي بحت، تم تدعيمه بالتعاون في بعض المجالات الأخرى كتقديم الخبرات العسكرية للمؤسسة العثمانية، قصد الرفع من كفاءة ضباطها، والقيام بتدريبهم في ألمانيا وإرسال مدربين إلي استانبول للقيام بذلك أيضا، كما نجحت في الحصول على امتياز من اسطنبول لتنفيذ خط حديد برلين – بغداد، وتمكنت من تنفيذ جزءا كبيرا منه انطلاقًا من أراضي البلقان مرورًا بدمشق[1]، وسعوا إلى الوصول به إلى نقطة النهاية، ولكنهم اصطدموا بالمصالح الانكليزية في الشرق الأوسط.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المشاريع الألمانية جاءت في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تمر بظروف سياسية واقتصادية معقدة، إضافة إلي الوجود الانكليزي بالقرب منها في الدول العربية مثل العراق ومصر وغيرهما الأطماع الروسية في المنطقة.

والملاحظ أن الدولة العثمانية حاولت الاستفادة من كل الخبرات الأوروبية سواء الألمانية أو الروسية أو الانجليزية وغيرها وذلك عن طريق السماح لهم بإقامة مشاريع

(١) فايز صالح أبوجابر: المرجع السابق، ١٥٢.

اقتصادية علاوة علي الاستفادة من الخبرات العسكرية التدريبية، ولأن التنافس كان كبيراَ بين تلك الدول حاولت الدولة العثمانية خلق نوع من التوازن بينها سواء من حيث منحها حق إقامة المشاريع الاقتصادية او المساهمة في تطوير البنية التحتية لها.

وعلي غرار ألمانيا عملت روسيا علي الحصول علي إنشاء مشاريع اقتصادية داخل أراضي الدولة العثمانية ففي سنة ١٨٧٩م كان القنصل الروسي في بغداد في العراق يعمل علي تشييد محطة للفحم في منطقة الخليج العربي لصالح روسيا، ثم توالت العروض الروسية علي الدولة العثمانية للحصول علي مشاريع أخري فقام الكونت الروسي فلادمير بتقديم مشروع للسلطان العثماني وهذا المشروع هو بناء خط حديدي يربط مابين مينائي طرابلس الشام والخليج العربي علي أن يكون له فرعان الأول باتجاه مدينة بغداد العراقية والثاني يمتد نحو مدينة خانقين(١).

لقد تركزت أهداف بروسيا في الدولة العثمانية في مهمة الاستيلاء على المناطق الغنية فيها واستخدامها كنقطة إرتكاز لتوسعهم اللاحق في الشرق العربي ترسيخ النفوذ الألماني فيه فيما بعد(٢).

---

(١) في المقابل قامت بريطانيا بمحاولة عرقلة المشاريع الروسية مثلما عملت في السابق ضد المصالح الألمانية في المنطقة، فقامت بتقوية نفوذها في الكويت حتي تقف في وجه تلك المشاريع خاصة مشاريع مد خطوط السكك الحديدية وطالبت بريطانيا أن يكون لها دور في بناء هذه الخطوط، وقد استمر التنافس بين الدول الأوروبية فيما بينها إلي جانب الصراع بين بريطانيا والدولة العثمانية حتي وصول جماعة الاتحاد والترقي إلي الحكم في تركيا سنة ١٩٠٩م وقد بدأت الحكومة الجديدة العمل علي تسوية خلافاتها مع بريطانيا وتم لها ذلك سنة ١٩١٣م بعقد اتفاقية بينهما لإنهاء ذلك الصراع، وهي محاولة من الدولة العثمانية لإيجاد نوع من التوازن في تعاملاتها وفي منح المشاريع الاقتصادية علي أراضيها للدول الأوروبية الكبرى آنذاك.

محمود السيد: تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، الإسكندرية - مؤسسة شباب الجامعة ٢٠٠٠، ١٤٣.

(٢) التكريتي هاشم: التغلغل الألماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الأولي، مجلة البعث، العدد ٣٧، بغداد، ١٩٨٦م، ٤٦.

المراجع

أولا: المراجع العربية

١. أحمد، محمد، الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية: دمشق – سوريا، ٢٠٠٨.

٢. أحمد، محمد، من عصر النهضة الأوروبية حتى ثورة المعلومات قراءة في التاريخ والحضارة الأوروبية، دار بعل: دمشق، ٢٠٠٩.

٣. البطريق، عبد الحميد، التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ – ١٩٦٠، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، ١٩٧٤.

٤. الجمل، شوقي عطا الله وعبد الله إبراهيم ورباب سلام، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الجزء الثاني من مؤتمر فيينا حتى الآن، دار الثقافة للنشر والتوزيع: القاهرة – مصر، (د. ت).

٥. الربيعي، إسماعيل نوري، تكوين أوروبا السياسي المعاصر، دار أساريا للطباعة والنشر: الزاوية – ليبيا، ٢٠٠١.

٦. السيد، محمود، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة – مصر، ٢٠٠٠،

٧. المقرحي، ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث ١٤٥٣ – ١٨٤٨، منشورات جامعة قاريونس: بنغازي – ليبيا، ١٩٩٦.

٨. المقرحى، ميلاد، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية، الجامعة المفتوحة: ليبيا، ١٩٩٥.

٩. العاني، رعد مجيد، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر الصراع والتحالفات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع: عمان – الأردن، ٢٠٠٨.

١٠. العدل، حسن أفندي العدل، رحلة حسن أفندى توفيق ١٨٨٧ـ ١٨٩٢، دراسة محمد صالح عرب، إعداد عبد المنعم محمد سعيد، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة – مصر، ٢٠٠٨.

١١. أبو جابر، فايز صالح، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، دار البشير للنشر والتوزيع: عمان – الأردن، ١٩٨٩.

١٢. أبو علية، عبد الفتاح وإسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر: المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣.

١٣. برون، جيفرى، المدنية الأوروبية فى القرن التاسع عشر ١٨١٥ – ١٩١٤، ترجمة محمد أحمد على،

دار نهضة مصر للطباعة والنشر: القاهرة، ١٩٦٦.
١٤. دانبوغ، إدوين، تاريخ العالم، ترجمة حميد علي بوشعيلة وفوزي درويش وعادل عبو، جامعة عمر المختار: البيضاء - ليبيا، ٢٠٠٧.
١٥. حاطوم، نور الدين، تاريخ الحركات القومية يقظة القوميات الأوروبية - الوحدات القومية، ج ٣، دار الفكر: دمشق - سوريا، (د.ت).
١٦. حاطوم، نورالدين، تاريخ القرن التاسع عشر في اوروبا والعالم، الجزء الثاني، دار الفكر - دمشق، ١٩٩٥
١٧. راشد، زينب عصمت، تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر،، دار الفكر العربي: القاهرة_مصر، ٢٠٠٠.
١٨. عبد الرحيم، عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة - مصر ١٩٩٥.
١٩. فشر، هربرت، نابليون، نقله إلي العربية محمد مصطفي زيادة ومحمد نوفل، دار المعارف - مصر، ١٩٥٨.
٢٠. فشر، هربرت، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم وديع الضبع، دار المعارف: مصر، (د. ت).
٢١. كوهن، هانز، عصر القومية، ترجمة عبد الرحمن صدقي، مؤسسة سجل العرب: القاهرة، ١٩٦٤.
٢٢. نوار، عبد العزيز وعبد المجيد نعنعي، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، (د. ت).
٢٣. التكريتي، هاشم، التغلغل الألماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الأولي، مجلة البعث، العدد ٣٧، العراق، ١٩٨٦م.
٢٤. يحيى، جلال، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث: الازاريطة - الاسكندرية، ١٩٩٩.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1 - BIESINGER, JOSEPH, A., Germany: A Reference Guide from the Renassance to the present, Facs on File PublishingNew York, 2006.

2-EPKENHANS,MICHAEL, *Geschichte Deutschlands von 1648 bis heute*,Theiss, Stuttgart, 2008

3-HALDER, WINFRID, *Innenpolitik im Kaiserreich 1871–1914, Wissenschaftliche Buchgesellschafte*, Darmstadt, 2003.

4-HARDTWIG, WOLFGANG und HELMUT HINZE, *Deutsche Geschichte in Quellen und*

Darstellung, Band 7 Vom Deutschen Bund Zum Kaiserreich 1815 -1871, Philipp Reclamjun, Stuttgart,1997.

5-KUTZNER, J. G, *Weltgeschichte der Neuzeit, Herausgegeben von der Lexikonredaktion des Verlages F. A. Brockhaus in Zusammenarbeit mit Gernot Dallinger und Hans-Georg Golz,bpb, Mannheim*, 2006.

6-PUTZGER Historischer Weltatlas, Georg Westermann, 1976.

7-SCHULZE, Hagen, kleine Deutsche Geschichte,dtv, München, 1996.